إبراهيم محمد حسن الجمل



يطلب من : مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية - عابدين
القاهرة - تليفون ٩٣٧٤٧٠

الطبعة الثانية

دار التوفيق النموذجية
للطباعة والجمع الآلي
الأزهر : ٣ حيضان الموصلي
بجوار جامع الرعاة

إهـــداء

– الى الذين يبحثون عن أسرار ديننا الحنيف لاظهار كلمة الله ٠

– الى المرأة المسـلمة فى نهضتها الحديثـة ، راجيا أن تتخذ من سيرة أمهات المؤمنين نورا وهـــداية ٠

(المؤلف)

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

كتاب « زوجات النبى صلى الله عليه وسلم » كتاب وسط ، جمع بين سهولة اللفظ ، ووضوح المعنى ، وكثرة المعلومات ، يستفيد منه كل من يقرأه ، ويجد فيه تفكيرا جديدا ، ورأيا نافعا — ان شاء الله —

ولقد حرصت أن تظهر الطبعة الثانية خالية من الهفوات التى صدرت من غير عمد ، والتى أشار اليها المخلصون ، واستجبنا لهم من غير تأويل أو ابتداع ٠

والله أسأل أن يكمل به النفع ، وأن يقتدى المسلمون بأعمال أمهات المؤمنين ، وأن يكون لنا فى سيرتهن العظة والعبرة ٠ والله الموفق ٠

ابراهيم الجمل

الرجاء عدم اللعب
والكتابة في المكتبة
لأنه يزعج القرأين

Name: Ahmad Mohammad Rasol allah.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الأولى

التفكير فى الأديان لا يعتمد على العقل وحده ، لأنها من الأمور الغيبية التى لا مجال للعقل فيها • فالتفكير فيما وراء هذا العالم قد ينحرف بالعقل عن السير فى الطريق الصحيح اليه ، فهو لا يعرف الأصول والقوانين التى يعتمد عليها فيما يوصله الى ما يريد ، فقد يصطدم فى نهاية ما يفكر فيه بحائط سميك يسد عليه المنافذ ، وقد يتشتت فى دوامة تتخطفه آراء وأهواء لا يدرى ما يصدق وما لا يصدق ، لأنه محدود فى تكوينه وفى تفكيره وفى معلوماته مهما يبلغ نموه وتفتحه وقدراته •

انه يشعر بالعجز لأن العالم الذى يفكر فيه قصر عن ادراكه ، فلم يعرف عنه شيئا ، وليس هناك ما يمكنه الاعتماد عليه ليصل الى متطلبه ومبتغاه فمن أراد أن يفكر فى الأديان لابد أن يسترشد الى جانب العقل بالعاطفة والاحساس والشعور والفطرة التى فطر عليها ، كل ذلك يسيطر عليه ويجذبه الى قوة خفية ، وبخاصة حين يكون فى حالة غير طبيعية : كأن تستولى عليه حالة لا يستطيع أن يتحكم فيها ،

كالخوف الشـــديد أو الرهبة أو المرض الذى يعجز عن معرفة دوائه ، انه يتجه الى خالق هــذه القوة اتجاها لا شـــعوريا يتضرع ويتذلل ليرفع عنه ما نزل به مما لا قدرة له على دفعه ، بل قد ينطق لسانه قائلا : « يارب » نطقا يتفق مع الفطرة التى فطر الله الناس عليها •

ولعل ما حدث لطيار روسى ، قذف بنفسه من طائرته التى تحترق فلم تنفتح مظلته ، فاذا به ــ وهو الشيوعى المنكر للدين ــ يهتف ، حين أحدق به خطر الموت « يارب » فتنفتح المظلة •• لعل فى هذا أصدق شاهد على استجابة الفطرة لباريها !

لذلك فان من الواجب على الانســـان الذى هو علة هــذا الكون ، ومصـــدر الهامه ، أن يؤمن ايمـــانا قويا بتلك القوة الخفية ، ولمــا لم يكن فى مقدوره الاحاطة بتلك القوة ، فان عليـــه أن يؤمن بمن جاءوا ليحدثوه بما وراء الغيب ومعهم من المعجزات التى لا يستطيع البشر أن يأتى بمثلها ، والتى تواترت الأخبار بها ولا يزال بعضها بين ظهرانينا[١] •

ومن الذين وهبوا الأمور الخارقة ، ودعوا الى الايمـــان بالله واليوم الآخر والملائكة ، كما دعوا الى المثل العليـــا التى تعود على الانســـان بالخير العميم فى الدنيا والآخرة ، أنبياء الله ورسله موسى وعيسى ومحمد عليهم الصـــلاة والسلام •

---

(١) لا يزال القرآن الكريم معجزة الاسلام الخالدة .

هؤلاء نالوا درجة رفيعة ومنزلة سامية ، فلا يصح أن ننظر اليهم نظرتنا للرجل العادى ، بل ننزلهم منزلة تليق بمن أرسلوا لهداية الناس والسير بهم الى الصراط المستقيم ، فلا نتناول أعمالهم بالنقد والتجريح .

فليس لنا مثلا أن نقول : كيف خلق الله عيسى عليه السلام ؟ متناسين أن الله سبحانه وتعالى هو الذى خلقه وأنه خلق من قبله آدم — عليه السلام — بطريقة يعجز البشر عن معرفتها .

« ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم ، خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون »[1] .

أو نقول لماذا لم يتزوج النبى عيسى عليه السلام طيلة حياته ؟ نحاول أن ننال منه أو ننقص من منزلته لأنه سار على سنة غير سنة البشر .

« ذلك عيسى ابن مريم ، قول الحق الذى فيه يمترون »[2] .

فهذا ومثله ينبغى أن نرده الى خالق الأرض والسماء ، ولا نسمح لعقولنا القاصرة أن تفكر فيه تفكيرا سلبيا الا اذا كان التفكير يهدينا الى سبب وحكمة تنير لنا الطريق لمعنى سام وغاية نبيلة .

* * *

---

(١) آل عمران : ٥٩ .　　　(٢) مريم : ٣٤ .

ولا يحق لنا أن نأخذ على النبى موسى عليه السلام مأخذا حينما ضرب الرجل المصرى الذى كان يتقاتل مع الاسرائيلى فقتله •

« ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوه ، فاستغاثه الذى من شيعته على الذى من عدوه فوكزه موسى فقضى عليه »(١)

فهذا لحكمة أرادها الله تعالى وموسى ــ عليه السلام ــ فى بداية دعوته •

أو حينما غضب وأساء الى أخيه هارون فلم يتمالك نفسه ، وأخذ برأس أخيه يجره اليه كما أخبرتنا الكتب المقدسة ، وكان فى طبيعته ــ عليه السلام ــ بعض الحدة التى لا تنفر •

« قال يابن أم لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى ، انى خشيت أن تقول فرقت بين بنى اسرائيل ولم ترقب قولى »(٢) •

فما فعله النبى موسى ــ عليه السلام ــ لا ينبغى أن نصفه بصفة تقلل من قدره ولا من مروءته •

وليس لنا نحن البشر أن نفوه بكلمة نقد تجاه خاتم النبيين محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ لأنه تزوج وقد

---

(١) القصص : ١٥ •   (٢) طه : ٩٤ •

تجاوز الخمسين أكثر من عشر نساء ، وهى سن قد ينصرف الانسان فيها عن الرغبة الجنسية الى عاطفة فيها شىء من التعقل ، فلا يليق بانسان مهما يكن تفكيره أو ادراكه وفهمه أن يقول ان النبى محمد صلى الله عليه وسلم تزوج هؤلاء النسوة ، وهو فى هذه السن وعيشه عيش الكفاف والزهد ، لأنه كان مغرما أو مشغوفا بالنساء •

فلم يكن زواجه بهؤلاء الا لحكمة أرادها الله وتنفيذا لأمر منه اما صريحا كما فى قصة زواجه بزينب بنت جحش — رضى الله عنها — واما ضمنا كما فى زواجه بغيرها ، لذلك نجد رب السماء ينهاه ، وقد قارب الستين عن الزواج مهما تكن الأسباب •

« لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن الا ما ملكت يمينك ، وكان الله على كل شىء رقيبا »[1] •

* * *

ولقد بدأت الكتاب بتمهيد بينت فيه أن ما أتى به الرسول الأعظم — صلى الله عليه وسلم — لم يكن بدعا من الرسل فقد تزوج كثيرون منهم أكثر من واحدة •

وكانت أول من تزوجها الرسول صلى الله عليه وسلم خديجة بنت خويلد — رضى الله عنها — وكانت ذات عقل وجمال

---

(١) الأحزاب : ٥٢ .

ومال ، فساعدته على فترة ما قبل الرسـالة ، وهى أصعب بكثير مما بعدها لأن تلك الفترة كانت فترة استعداد وتمرين لتحمل أمر رب السـماء ، وهو ليس بالهين ، فلا يسـتطيع الانسـان أن يسمو بروحه الا بترك الدنيا والانقطاع للعبادة والتخلص من المادية والاتجاه الى ما يسـاعد على صـفاء الروح • وقد ساعدته الزوجة الوفية رضى الله عنها على ذلك كله ، فلم يحدث ما يعكر صفو الرسـول أو يؤخر من صعوده الى مهمته ، حتى جاءه الوحى فآمنت به وصدقته وظلت تدافع عنه أعداء الدعوة حتى صعدت روحها الطاهرة الى الرفيق الأعلى •

***

ولقد أشفق أصحاب الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ عليـه وأهمهم ما فيـه من حزن ، فوكلوا الى صـحابية جليلة تدعى خولة بنت حكيم أن تختار له من تسـاعده فى بيته ، فاختارت له أرملة ليست جميلة توفى عنهـا زوجها ، وخطبت له عائشـة بنت أبى بكر ــ رضى الله عنهمـا ــ وأخبرت النبى بموافقة والديهـا فوافق النبى صلى الله عليـه وسـلم على ما ذهبت اليـه •

ثم تزوج حفصة بنت عمـر بن الخطـاب ــ رضى الله عنهما ــ تكريما لوالدها ، فقد عرضها أبوها ، بعد موت زوجها ، على أبى بكر وعلى عثمان ــ رضى الله عنهما ــ فامتنعا وبسببها نزل كثير من القـرآن ، وبعـدها تزوج زينب بنت خزيمـة

ـ رضى الله عنها ـ وكان زوجها قد استشهد فى غزوة أحد ٠ وتزوج أم حبيبة ـ رضى الله عنهـا ـ التى توفى زوجها فى الحبشـة ، وتولى العقد النجاشى حاكم الحبشـة ، ثم ميمونة ـ رضى الله عنها ـ وغيرها ٠ ولعل من أشهر نسائه صفية ـ رضى الله عنها ـ التى حارب النبى أهلها حينما نقضوا العهد ، وقتل فى المعركة زوجها وعمها وأبوها ، ولكنها أحبت النبى صلى الله عليه وسـلم ، ويظهر ذلك الحب الشـديد حينما نزل به المرض فحزنت وبكت ، وقالت مخاطبة النبى الـكريم : « انى والله يا نبى الله وددت الذى بك بى » ٠

* * *

ثم بينت الحكمة من تعدد زوجات النبى محمد ، صلوات الله وسـلامه عليه ، بعد أن توثقت الصـلة بينه وبين ربه ، وأصبح اختيـار هؤلاء الزوجات لمصلحـة الدعوة ، وليس لشخص محمد ـ صلى الله عليه وسـلم ـ فائدة تذكر من الجمع بين هـذا العدد ان لم نقل انه صادف بعض المتاعب من جراء تلك الكثرة ، وما نراه سـببا لذلك الا ليكون دليلا على صدق دعوته الى الاسـلام ، وأن هـذه الدعوة من عند الله ، فالزوجة أقرب الناس الى زوجها ، ومن سـيرته تعرف عاداته وطباعه وكذبه وصـدقه واحتيـاله واخلاصه ، فلو كانت واحدة فقد تكذب أو اثنتين أو ثلاثا فقد ينافقن ، وقد يجوز ذلك اذا كن أربعا أو خمسـا ، أما اذا كن أكثر من عشر

فان ذلك يكون مستبعدا ، وبخاصة أن منهن من قتل زوجها وعمها وأبوها فى الحرب فلو كان محمد — وحاش الله — دعيا أو كذابا أو منافقا ، فهل يمكن لمثل صفية — رضى الله عنها — أن تترك أهلها ومن بقى من عشيرتها لتكون مع هـذا الأفاق مثلا ؟ كلا • وكذلك بنت أبى سفيان وجويرية بنت الحارث رضى الله عنهما •

فلو أن هؤلاء رأين أدنى شىء يدل على كذب النبى محمد — صلى الله عليه وسلم — لتركنه وأسرعن الى ذويهن لينشرن كذبه وكهانته لكنهن آمن به وأخلصن له ، وتعاون معه على نشر الدعوة ، فكان هـذا الاجماع دليلا واضحا على صدق النبى محمد — صلى الله عليه وسلم — وأن دعوته من عند خالق السماء والأرض وأن ما يقوله صادق فيه •

ولم يكن فى بيت النبى محمد — صلى الله عليه وسلم — نعيم أو رفاهية حتى يتمسكن بالحياة معه ، بل غالبا ما يمر اليوم وهن صائمات لا يجدن ما يأكلن ومع ذلك ذضلن الحياة معه •

❋ ❋ ❋

ومن حكم التعدد أيضا أن نتعلم من النبى محمد صلى الله عليه وسلم خلقه العظيم فى معاملة الزوجة ، فلم يؤثر عنه أنه أهان زوجة أو سبها أو كلمها كلمة نابية ، بل كانت معاملته مثلا أعلى يقتدى به • ويظهر هـذا الخلق العظيم حينما اتهمت عائشة ولاكتها الألسنة ، وانتشرت الشائعات

حولها وتناقلها الناس من مكان الى مكان • وغضب النبى وراح يسأل ويناقش وعائشة معه ، ولم يرض أن يكون أول ناقل للخبر السيىء فقد يكون الخبر كاذبا ، وكان بها رؤوفا رحيما حتى أنزل الله ببراءتها قرآنا يتلى •

وكثيرا ما كان يوصى بالنساء خيرا فى كثير من أقواله ومساعدته لهن فى البيت دليل واضح •

ولقد كان للزوجات حرية الكلمة والتعبير عن الرأى بكل شجاعة ما دام ذلك لا يغضب رب السماء أو يمس شعور الأخريات • وكثيرا ما كان يردهن بالحسنى • وقد يغضب أحيانا ويظهر ذلك على وجهه ، ولكنه يسرع فيستغفر الله ويطلب ممن أساءت التوبة والرجوع الى الله •

* * *

وهناك حكم أخرى لتعدد زوجاته عليه الصلاة والسلام : منها ادخال السرور على قلوب النساء اللائى مات أزواجهن فى الجهاد والقتال فى سبيل الله ، وذلك بتقريبهن اليه بالزواج •

وأيضا مساعدة من مات أزواجهن على تربية أولادهن وكان لهم سبق الاسلام •

وبجانب هذا فقد كان نشر قواعد الاسلام يقتضى أن تكون له زوجات كثيرات ينقلن عنه تعاليم رب السماء ، وزوجة النبى أقرب الناس وأولى بمعرفة الكثير من الأحكام ، وبخاصة الأمور التى لا يستطيع نقلها الا الزوجات •

ولما مات النبى محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ كانت بيوت الزوجات مراجع يأتى اليها المسلمون ليتعلموا الدين ، فكانت الزوجات تروى كثيرا من أحاديثه وكلامه وتربيته •

ثم نرد على شـبه المغرضين والمتعصبين الذين يرمون النبى محمدا ـ صلى الله عليه وسلم ـ بما ليس فيه ، ويصور لهم قصر عقولهم اتهامات نرى أن الرسول برىء منها •

ونختتم الكتـاب بما روى عن معيشـة النبى محمـد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وخلو بيته من مقومات الحيـاة راضيا بالقليل كما علمه رب العالمين • ولا يمـكن لمن ابتعد عن ملاذ الطعـام والشراب والملبس والفراش أن يلتفت الى التمتع بملاذ الحيـاة •

ولقد أجمعت زوجاته ـ رضى الله عنهن ـ على أنه كان يقوم الليل حتى تتورم قدماه فليس فى حياته أى مطلب للدنيا ، وانما كان منشغلا بالحيـاة الآخرة بعد الموت وما يدخره الله له من النعيم فى الحيـاة الثانية ، وما ذلك الا لأنه أرسل من الله لهداية الناس • فما أحوج البشرية الى دراسة خلقه والاقتداء به حتى يعيش الناس متآخين متحابين •

والله أسأل أن يوفقنا لاظهار أسرار دينه الخالد على مر الزمان والأيام •

ابراهيم الجمل

الزوجــات

تمهيـــــد :

تزوج النبى محمد ــ صلى الله عليــه وسلم ــ أكثر من عشر نســـاء لمصلحة الدعوة واتباعا لأمر الله عز وجل وســـيرا فى الطريق الذى سار فيه الرسل والأنبيـــاء من قبل •

« ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجا وذرية ، وما كان لرسول أن يأتى بآية الا باذن الله »(١) •

وان عقولنا نحن البشر لا تعد الزواج نقصا فى حق العظماء والحكماء الذين نبغوا فى العلم والاختراع والقيادة ، فكيف يكون ذلك نقصـــا فى حق من أرســـلهم الله لهداية البشرية الى الطريق المســـتقيم •

ولم يكن الرســـول الأعظم مبتدعا فيما جاء به ، ولقد خاطبه الله سبحانه وتعالى فقال :

« قل ما كنت بدعا من الرســـل وما أدرى ما يفعـــل بى

---

(١) الرعد : ٣٨ •

ولا بكم ، ان أتبع الا ما يوحى الى وما أنا الا نذير مبين»(١) •

وقديما تزوج رسل وأنبياء قبل محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ بأكثر من واحدة فابراهيم ــ عليه السلام ــ جمع بين سارة وهاجر ، ويعقوب ــ عليه السلام ــ تزوج راحيل ، وبلهة ، وليئة ، وزلفة •

ويروى أنه كان لداود عليه السلام مائة امرأة وثلاثمائة سرية • ولسليمان بن داود ــ عليهما السلام ــ سبعمائة من النساء وثلاثمائة من السرارى •

وسنعرض شيئا من سيرة زوجاته عليه الصلاة والسلام ، ثم نأتى بعد ذلك بالحكمة من هذا الزواج •

* * *

---

(١) الأحقاف : ٩ •

السـيدة خديجة (رضى الله عنها) (*)

جاوز محمد بن عبد الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ العشرين ، فأينع صباه ، واكتمل شـبابه ، وسـيم الطلعة نبيل الملامح ، متدفق الرجولة ، تعلو وجهه المشرق مسـحة الحزن لفقد الأم والأب والجـد .

أصبح محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ فتى ، يغمره عمه أبو طالب بالحنان والحب ، ويفيض عليـه من العطف الذى يخفف عنه كثيرا من الآلام التى تعترض تفكيره ، فكان ينير له الطريق بخبرته وتجاربه .

كان يرعى الغنم والابل فى صـغره ، وكان ينطلق وراءها يحرسها ويرعاها . أما وقد كبر وما عاد يصلح لهذا العمل ، فقد فكر له عمه فى عمل يدر ربحا أكثر ويعود عليه بالخير والمنفعة ، ويتفق مع ما يتحلى به محمد من صفات وما تجمل به من خلق ، فقال له يوما :

« ان خديجة بنت خويلد ــ رضى الله عنها ــ لها مال ورجال

(*) سوف يظهر ان شاء الله كتابنا الخاص بالسـيدة خديجـة رضى الله عنها .

يتجرون لها ويصيبون المنافع ، وهـذه عير قومنا أخذت تستعد للخروج الى الشـام ، وأنت ـ يا ابن أخى ـ تصلح لهـذا الأمر ، فلو جئتها لفضلتك على غيرك لمـا عرف الجميع عنك من الطهارة والأمانة » •

وافق الفتى محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ على ما ارتآه عمه ، وسرت خديجة أعظم سرور بانضمام محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ الشـاب المثالى الذى لا تنقطع منتديات مكة عن ذكر مآثره والثناء عليـه ، الى رجالها ، بل لقد شغلها بما جبل عليـه عنهم ، أجمعين ، لذلك فقد فضـلته ووعدت بأن تعطيه ضعف ما كانت تعطى غيره ممن استأجرتهم من قبل •

* * *

سارت القافلة ، وكان فى رفقة محمـد غلامها ميسرة ، ورأى الغـلام من محمد ما أعجبه وأدهشـه ، أمانة واخلاصا ورجـولة وصبرا وجدا وحكمة ، بل رأى ما يذهل العقـل ويثير الوجدان •

قالوا : عندما قدم محمـد ـ صلى الله عليـه وسلم ـ الشام نزل فى ظل شجرة قريبا من صومعة راهب من الرهبان ، فاطلع الراهب الى ميسرة ، وقال : من هـذا الرجل الذى نزل تحت الشـجرة ؟ فقال ميسرة : هـذا الرجل من أهل مكة ، فقال له الراهب : ما نزل تحت هـذه الشجرة قط الا نبى •

باع محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ سلعته التى خرج

بها من مكة واشـــترى ما أراد ، ثم أقبل قافلا الى مكة ومعه ميسرة ، وقيل ان سحابة كانت تظله إذا اشـــتد الحر وقويت حرارة الشمس وهو على بعيره ، وتستمر حتى يذهب القيظ .

عقـــد ميسرة هـــذا كله على صدره ، فمن سيحدث بما رأى وسمع ، ان سيدته أولى الناس بأن يقص عليها هـــذه الأحاديث المشـــجية .

لقد ربحت التجـــارة ربحا هائلا ، لم ينقص عنـــه نقير أو قطمير ، وحمل بأكمله الى خديجة ، وراح ميسرة يقص على سـيدته ما لم يره أحـــد بل ولم يســـمعه من القصاص ، وخديجة ـ رضى الله عنها ـ تنصت بقلبها الكبير وعقلها الناضج ، وهى من هى اباء وشمماً ونزاهة ومجداً وجاهاً ومالا ، فكانت تدعى فى الجاهلية بالطاهرة .

* * *

هى بنت خويلد بن أســـد بن عبـــد العزى ، تلتقى مع محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى جده قصى ، وخويلد هـــذا ممن قادوا قريشا فى حرب الفجار ، وأمها فاطمة بنت زائدة بن الأصم من بنى عامر بن لؤى أحد أجداد محمد ، وعمها عمر بن أســـد ، وابنا عمها حكيم بن حزام وورقة بن نوفل ، فهى من كبريات القوم ، قرشـــية شريفة موسرة ذات جمال وفطنة .

ولدت بمكة حوالى منتصف القرن السادس الميـــلادى ، ونشأت معززة مكرمة ، ثم تزوجت فى فجر شبابها من عتيق بن

عابد بن مخزوم فولدت له حارثة ، ثم خلف عليها بعده أبو هالة مالك بن القياس بن زرارة أحد بنى عمر بن تيم فولدت له ولدا وبنتا ، فلما مات خطبها كثيرون من سادات قريش فأبت وامتنعت برغم توددهم والحاحهم .

لكن قلبها تفتح لمحمد — صلى الله عليه وسلم — وهى المعجبة بأخلاقه وسيرته الكريمة ، ورأت فى فتى قريش ما لم تره فى السادة من قريش الذين تزاحموا على بابها يطلبون يدها .. رأت فيه تحقيقا لأمل طالما حلمت به وتمنته ، فهو كما قالوا :

« شاب وسيم ، معرب الملامح ، أزهر اللون ، ربعة فى الرجال ، ليس بالطويل البائن ، ولا بالقصير المتردد ، ضخم الرأس ، مبسوط الجبين ، مرسل الذقن ، عالى العنق ، عريض الصدر ، غليظ الكفين والقدمين ، يتوج هامته شعر كث شديد السواد ، وتشع عيناه الدعجاوان الواسعتان جاذبية وسحرا تحت أهداب طوال حوالك ، وتتألق أسنانه المفلجة اذا تكلم أو ابتسم » .

وفوق ذلك فهو عريق النسب طيب العنصر ، عظيم الشخصية ، زيادة على ما يمتاز به خلقا وأدبا ورأيا .

لكنها حبست وجدها فى صدرها ، فقد قالوا : « ربما تلقى اعراضا منه مثل الاعراض الذى لاقته رقية بنت نوفل أخت ورقة بنت عم خديجة . فلقد حضرت رقية الى الكعبة ، ورأت عبد الله

ابن عبد المطلب والد محمد صلى الله عليـــه وسلم ، وقد هم عبد المطلب بذبحه فداء لأولاده ، فتحرك قلبهـــا لعبد الله حبا واعجابا وشـــفقة واكبارا ، فما ان اســـتبدل الذبيح بأن افتدى بمائة ناقة نحرت بديلا عنه حتى أسرعت اليه تعرضت نفســـها عليـــه قائلة :

« ولك مثل الابل المائة التى نحرت عنك »

لكن عبد الله اعتذر فى تلطف ، ومضى ليتزوج آمنة بنت وهب أم محمد ــ صلى الله عليه وسلم •

* * *

كان حب خديجة ــ رضى الله عنها ــ أكبر من أن يكتم فى قلبها ، ولكن الحياء أمســـكها أن تذهب اليه يمنعها كبرياؤها ، ولم تســـتطع أن تفوه به لانســـان الا الى صديقتها المخلصة نفيسة بنت منبه ــ وكانت تثق فيهـــا وتأمنها على سرها ــ فباحت لها برغبتها •

أشفقت نفيســـة على صاحبتها ، ورســـمت خطة تحقق بها أمنية خديجة ــ رضى الله عنها ــ فجاءت محمدا ــ صلى الله عليه وسلم ــ وسألته عن سبب عزوفه عن الزواج وهو فى سن الاكتمال ، وبحاجة الى زوجة يســـكن اليها تؤنســـه وتزيل وحشته ، فشكا اليها محمد ــ صلى الله عليـــه وسلم ــ قلة ذات اليد •

فأجابت سريعا : « ما رأيك لو دعيت الى الجمال والمال والشرف والكفاءة .. ألا تجيب ؟ » .

فقال محمد — صلى الله عليه وسلم — على الفور : « تلك خديجة ورب الكعبة » .

ورأت نفيسة من محمد — صلى الله عليه وسلم — علامة الرضا والموافقة ، فأسرعت الى خديجة فرحة مسرورة مهنئة بتحقيق أمنيتها . ولم يمض وقت طويل حتى كان محمد — صلى الله عليه وسلم — يدق باب خديجة — رضى الله عنها — ومعه عماه أبو طالب وحمزة . وفى بيت خديجة العريق وجدوا علية القوم فى انتظارهم وقد هيىء كل شىء لاتمام الزواج .

وتكلم أبو طالب فكان مما قال :

« ... فان محمدا ممن لا يوازن به فتى من قريش الا رجح به شرفا ونبلا وفضلا وعقلا ، وان كان فى المال قل فانما المال ظل زائل وعارية مسترجعة ، وله فى خديجة بنت خويلد رغبة ، ولها فيه مثل ذلك .. » .

وتكلم عم خديجة — رضى الله عنها — فأثنى على محمد — صلى الله عليه وسلم — ، وتعرض لكثير من صفاته ، ثم زوجها على صداق قدره عشرون بكرة .

* * *

بدأ محمد — صلى الله عليه وسلم — حياته الزوجية وكان

فى الخامسة والعشرين ، أما خديجة فكانت تكبره ببضع سنين ، وليست فى سن الأربعين كما يروى لنا معظم الرواة • فحينما تزوجت خديجة — رضى الله عنها — من محمد — صلى الله عليه وسلم — كانت تكبره ببضع سنين لا تزيد على الثمانى أو العشر ، فلو أن سنها عند الزواج أربعون لكانت قد قربت من سن اليأس وهى السن التى ينقطع فيها دم الحيض فلا تلد المرأة وهى فى الغالب سن الخامسة والأربعين •

وعلى فرض أن تبقى سن الولادة الى الخمسين ، فمن المستبعد أن تبقى الى سن الخامسة والخمسين •

فقد نقل السهيلى فى « الروض الأنف » عن رواية الزبير ابن العوام بن خويلد قوله :

« ولدت خديجة — رضى الله عنها — له القاسم وعبد الله وهو الطاهر والطيب ، سمى بالطاهر والطيب لأنه ولد بعد النبوة ، واسمه الذى سمى به أولا عبد الله » •

وسن النبوة كان فى الأربعين للرسول عليه الصلاة والسلام ، فتكون خديجة — رضى الله عنها — قد أربت على الخامسة والخمسين •

وروى أيضا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل على خديجة — رضى الله عنها — بعد بعثته وهى تبكى ، فقالت :

يا رسول الله درت لبينة القاسم(١) ، فلو كان عاش حتى يستكمل رضاعته ، فقال الأب الرسول : «ان له مرضعا فى الجنة تستكمل رضاعته » • قالت : لو أعلم ذلك لهون على ، فقال النبى : « ان شئت أسمعتك صوته فى الجنة» فأجابت : بل أصدق الله ورسوله•

وورد أيضا فى ترجمة أم المؤمنين خديجة رضى الله عنها :
« •••• فولدت له القاسم وعبد الله وهو الطيب الطاهر ، سمى بذلك لأنها ولدته فى الاسلام »(٢) •

ولذلك فنحن نميل الى القـول بأن أم المؤمنين خديجة تزوجت الرسول — صلى الله عليـه وسلم — ولم تكن تكبره الا ببضع سـنوات ، ولم تكن فى سن الأربعين كما ذهب معظم الرواة ، ولا عبرة بما يقال من « أن نسـاء قريش يلدن بعد الستين ، ويحتفظن بجمالهن ونضارتهن الى المائة » •

سارت الحيـاة الزوجية موفقة هادئة ، يملؤها الحب والاخلاص ، فجمعت بين راحة البال ، واطمئنان النفس وكان رجل البيت يقسـم وقته بين بيته وتجارته وعبـادة ربه ، كان يذهب الى غار حراء للتعبد والتأمل والتفكير على دين ابراهيم عليـه السلام •

ورزق من خديجة — رضى الله عنها — جميع أولاده ،

---

(١) لبينة : تصغير لبنة ، تعنى بها بقايا اللبن فى الثدى •
(٢) الاصابة : جـ ٨ ص ٦١ •

ما عدا ابراهيم فانه من مارية المصرية ، وكان أهداها له المقوقس حاكم مصر • وأولاده هم زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة وعبد الله والقاسم ، وكان يكنى به عليه الصلاة والسلام •

* * *

ظلت خديجة ـ رضى الله عنها ـ طوال حياتها مع الرسول صلى الله عليه وسلم • وكانت فترة ما قبل الوحى من أشق الأيام فى حياة الرسول حيث يستعد للقاء لم يألفه الانسان ، وليس للانسان العادى قدرة على تحمل أعباء ما يكلف به ، وأمر الرسالة ليس هينا ، وسوف نولى تلك الفترة شيئا من التفصيل عند الكلام على الحكمة من تعدد زوجاته صلى الله عليه وسلم •

ولما شرف الله محمدا ـ صلى الله عليه وسلم ـ برسالته الخالدة ، كانت خديجة ـ رضى الله عنها ـ أول من آمن به وكان ايمانها عن عقيدة وفكر وتدبر ، فقد روى أنه حينما أخبرها الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأمر الرسالة والملك والسماء أرادت أن تتأكد من حضور الملك ـ وكانت على علم بأن الملك لا يدخل مكانا فيه امرأة حاسرة الرأس ـ فلما أخبرها الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأن الملك قد حضر ـ وكانت جالسة معه ـ أرادت أن تتأكد من وجوده وأنه ملك ، فكشفت غطاء رأسها ، فأخبرها الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأن الملك قد ذهب فتأكدت بنفسها من الأمر العظيم •

وقد قامت ــ رضى الله عنها ــ بدور خطير ، وتحملت أقسى ما يصادفه انسان منعم فى حياته ، كانت تدفع عنه سادة قريش وهم يكيلون له الاساءة بأنواعها ، وكانت تشد من أزره ، وتقوى من عزيمته وتصبره •

ولعل أقوى ما صادف خديجة ــ رضى الله عنهــا ــ هو المقاطعة التى تعرض لها بنو هاشم وبنو عبــد المطلب بسبب ما يدعو اليه محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ فقد خرجت خديجة ــ رضى الله عنها ــ من بيتها لتنضم الى بنى هاشم وقد جاوزت الستين من عمرها ، وحاصر المشركون الجميــع ، وقد كتب الصحيفة البغيض بن عامر بن هاشــم بن عبد مناف ، وقطعوا على أنفســهم عهدا بمنع الميرة والمــادة والأسواق ، وألا يقبلوا صلحا أبدا ما لم يســلموا محمدا ــ صلى الله عليه وسلم ــ ليقتل ، وصــار المحاصرون لا يخرجون الا من الموســم الى الموســم ، فقاسوا بذلك مشقة وبلاء مكثوا فيهما ثلاث سنين مع ضيق العيش والجوع والأذى ، فكان صوت الصبيان يسمع وهم يتضاغون من شــدة الجــوع والألم • ولم تكن خديجة بأقل من هؤلاء الصبية وقد أصابها المرض ودبت الشيخوخة الى جسدها ، ثم ثار رجال من المشركين على المقاطعة ، ومزقت الصحيفة ورجعت خديجة الى دارها ، وكان الاعيــاء والتعب قد نالا منهــا فلزمت فراشــها ، وكان الزوج الوفى يمرضــها بنفسه ، لا يفارقها ليلا ولا نهارا ينظر اليها فيتمثل فى خاطره

صورة الأم والأخت والزوجة ، حتى حم القضاء فأسلمت روحها الطاهرة الى خالقها فى العام الذى خرجت فيه من الشعب بعد ثلاثة أيام من موت أبى طالب ، وكانت وفاة أبى طالب بعد ثمانية أشـــهر وواحد وعشرين يوما من الخروج من الشعب •

قال حكيم بن حزام : « ودفناها بالحجون ، ونزل رسول الله صلى الله عليـــه وسلم فى حفرتها ، ولم يكن يومئذ صلاة جنازة حيث لم تكن قد فرضت »(١) •

وخلت الدار من الأنيس ، وأوحش المكان الا من بناته اللائى يرى صلى الله عليه وسلم فيهن صورة أجمل وأبر زوجة ، وكانت كما قالوا عنها : وزير صدق يأخذ برأيها وتساعده على ما يصادفه من قسوة قومه •

وما كاد الألم والحزن والمتاعب تســتولى على النبـــى ــ صلى الله عليـــه وسلم ــ لفقد الزوجة الحبيبة حتى فتحت له الســماء ذراعيها تلحظه عنـــاية الله ورعايته ، وجبريل معـــه والسابقون الأولون يبدون نشاطا ملحوظا ، والدعوة تزحف فى كل مكان ، ويتناقلها الركبان الى أنحاء الجزيرة العربيـــة وافريقية ، وكان من أخلص الناس وأوفاهم للدعوة أولئك الذين أتوا من يثرب لمبايعته عليه الصلاة والسلام •

***

(١) صفة الصفوة لابن الجوزى جـ ٢ ص ٩ •

انتقلت خديجة ــ رضى الله عنها ــ الى الرفيق الأعلى ، وتركت فى قلب النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ مكانة لم تملأها امرأة بعدها ، ومهما يكن من مجاملة النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ لزوجاته فيما بعد ، فانهن لم يبلغن منزلة خديجة ــ رضى الله عنها ــ كان يحن لكل ما يعود به الى ذكرى خديجة ــ رضى الله عنها ــ ويتودد الى كل من له صلة بها .

أقبلت أخت خديجة ــ رضى الله عنها ــ واسمها « هالة » لزيارة المدينة ، وسمع الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ صوتها فى فناء بيته ، وكان يشبه صوت خديجة ــ رضى الله عنها ــ فهش لها قائلا : « اللهم هالة أخت خديجة » !

روى عن عائشة ــ رضى الله عنها ــ أنها قالت : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يكاد يخرج من البيت حتى يذكر خديجة فيحسن عليها الثناء ، فذكرها يوما من الأيام فأدركتنى الغيرة فقلت : هل كانت الا عجوزا قد أخلف الله لك خيرا منها .. قالت : فغضب صلى الله عليه وسلم حتى اهتز مقدم شعره من الغضب ، ثم قال : « لا والله ما أخلف الله لى خيرا منها . لقد آمنت اذ كفر الناس ، وصدقتنى اذ كذبنى الناس ، وواستنى بمالها اذ حرمنى الناس ، ورزقنى الله عز وجل أولادها اذ حرمنى أولاد النساء . قالت : فقلت بينى وبين نفسى : لا أذكرها بسوء أبدا »(١) .

---

(١) الحديث أخرجه احمد فى مسنده .

وروى عنها أيضا قالت : « ما غرت على أحد من نساء النبى صلى الله عليه وسلم ما غرت على خديجة ، وما رأيتها ولكن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر ذكرها ، وربما ذبح الشاة يقطعها أعضاء ثم يبعثها فى صدائق خديجة ، فربما قلت له : كأن لم يكن فى الدنيا امرأة الا خديجة فيقول : « انها كانت وكان لى منها ولد »[1] .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « خير نسائها مريم بنت عمران ، وخير نسائها خديجة بنت خويلد » . وأشار الراوى الى السماء والأرض ــ أخرجه الشيخان والترمذى .

وزارت امرأة عجوز النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ فى بيت عائشة رضى الله عنها ، فهش لها وأكرمها ، وبسط لها رداءه فأجلسها عليه . فلما انصرفت سألته عائشة عنها لتعلم سبب اكرامه لها ، فأخبرها صلى الله عليه وسلم أنها كانت تزور خديجة رضى الله عنها .

ولم تنس السماء أن تتوج هذا الحب ، وأن تقدر الدور العظيم الذى قامت به لمساندة دعوة الاسلام ، وعنصرها الطيب الذى تفاعل مع النبى عليه الصلاة والسلام وتفانيها فى خدمة الرسول الذى أرسل الى الناس أجمعين .

---

(١) أخرجاه فى الصحيحين البخارى ومسلم فى فضائل خديجة .

روى أنه جاء جبريل عليـه السلام الى النبى صلى الله عليـه وسلم فقال له : أقرىء خديجة السلام من ربها •

فقالت خديجة ـ رضى الله عنها ـ بعد أن أبلغها السلام : « الله السلام ، ومنه السلام ، وعلى جبريل السلام » •

وقد بشرها الله جل جلاله على لسان نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ببيت فى الجنة من قصب(١) ، لا صخب(٢) ولا نصب(٣) •

رضى الله عنها ورفع مكانتها فى أعلى عليين •

* * *

---

(١) القصب : اللؤلؤ . (٢) الصخب : الضوضاء .
(٣) النصب : التعب .

السيدة سودة (رضى الله عنها)

كان الصحابة يهتمون بأمور النبى صلى الله عليه وسلم ، وكان يؤلمهم ويحزن قلوبهم وحدة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وخلو البيت من أنيس ، ولكنهم لم يجرأوا على مخاطبته فى هذا الأمر خوفا ألا ينال رضا الرسول ، فكانوا يلتفون حوله وتحتبس الكلمات فى أفواههم الى أن تجرأت يوما خولة بنت حكيم بن الأوقص السلمية امرأة عثمان بن مظعون فقالت : يا رسول الله .. ألا تزوج ؟

قال : من ؟

قالت : ان شئت بكرا وان شئت ثيبا .

قال : فمن البكر ؟

قالت : ابنة أحب خلق الله اليك عائشة بنت أبى بكر .

قال : فمن الثيب ؟

قالت : سودة بنت زمعة ـ رضى الله عنهـا ـ آمنت بك واتبعتك على ما أنت عليه .

قال : اذهبى فاذكريها على .

قالت : .. فدخلت على سودة بنت زمعة ــ رضى الله عنها ــ فقلت : ماذا أدخل الله عليك من الخير والبركة ؟ قالت : وما ذاك ؟ قلت : أرسلنى رسـول الله أخطبك عليه . قالت : وددت ، ادخلى على أبى فاذكرى ذاك له .

دخلت خولة عليه فحيته ، فقال الشيخ الكبير والد سودة : من هـذه ؟ فقالت : خولة بنت حكيم . فقال : فما شأنك ؟ قالت : أرسلنى محمد بن عبد الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ أخطب عليـه سودة ، فقال : كفؤ كريم ، فماذا تقول صاحبتك ؟

قالت : تحب ذلك . فقال : ادعيه لى .

فجاء النبى صلى الله عليه وسلم فزوجها اياه .

* * *

يوم أن خطب النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ سودة ــ رضى الله عنها ــ كانت أرملة مسنة غير ذات جمال ، ولكنها كانت من السـابقين الى الاسـلام ، فقـد أسلمت مع زوجهـا السـكران بن عمرو من بنى عامر بن لؤى ، وآذتها مكة مما اضطرها الى أن تخرج هى وزوجها مع الخارجين الفارين بدينهم الى الحبشـة مهاجرين .

ثم مات زوجها السكران بعيدا عن أرضه فترملت سودة ــ رضى الله عنها ــ وما نشك أن النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ فرح كثيرا بمد يده الرحيمة ليهون عليهـا آلام الحياة وقسوتها وبخاصة أنها لم يكن بها ما يرغب فى الزواج منها .

دخلت بيت الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ وكانت سعيدة بخدمة بنات الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ وكانت أكثر سـعادة حينما كان الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ يلاطفها ويضحك من مشيتها ، وكانت ثقيلة الجسـم .

كانت طيبة القلب صافية النفس ، وكان النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ يعرف فيها ذلك فكان يعفو عن هفواتها ، وظلت تقوم بخدمة الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ حتى امتلأ بيت الرسول بعائشة وحفصة وزينب بنت جحش وأم سلمة ــ رضى الله عنهن ــ ورضيت سودة بحظها ، وأراد النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ أن يوفيها من الحظ القلبى وكأن القلب لم يطاوعه ، فأراد النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ أن يسرحها فربما فى ذلك راحة لها ، وكاشفها الرسول بالأمر عارضا عليها رأيه .

فماذا قالت ؟ قالت : يا رسـول الله أمسـكنى ؛ والله ما بى على الأزواج من حرص ، ولكنى أحب أن يبعثنى الله يوم القيامة زوجا لك .

فنزل فيها قول الله تعالى :

« وان امرأة خافت من بعلها نشوزا أو اعراضا فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحا ، والصلح خير »(١) .

---

(١) النسـاء : ١٢٨ .

ثم رأت أن تتنازل عن ليلتهـا ، فتنازلت عنهـا لأحب الزوجات الى قلبها والى قلب الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ قائلـة :

« أبقنى يا رسـول الله وأهب ليلتى لعائشـة ، وانى لا أريد ما تريد النسـاء » .

واكتفت سـودة ـ رضى الله عنها ـ بأن تعيش فى كنف الرسـول ، وأن تراه حينما يمر عليهـا ، وأن تسـعد برؤيته صلى الله عليه وسلم ، وأن ترى فيه كل أمل فى الدنيا والآخرة ، فما تريد شـيئا الا أن تبعث فى الآخرة زوجة للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأن تداوم على صلاتها وقيامها وصومها .

ولمـا لحق الرسـول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالرفيق الأعلى ، روت ما حفظت من أحاديث الرسول الأمين ، وعمرت الى آخر خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

وظلت أم المؤمنين عائشة وفية لسودة ـ رضى الله عنهما ـ حافظة لها ايثارها وحبها بما قالته فيها : « ما من أحد أحب الى من أن أكون فى سلاخه من سودة بنت زمعة الا أن بها حدة » رحم الله سودة ورضى عنها .

* * *

السيدة عائشة (رضى الله عنها)

عند الكلام عن أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها ، يطيب لنا أن نرجع الى حديث الصحابية الجليلة خولة بنت حكيم رضى الله عنها ، تلك التى أرادت أن تتقـدم خدمة لرسول الله الصادق الأمين ، فاختارت له سودة بنت زمعة وفى نفس الوقت اختارت له عائشة ـ رضى الله عنهما ـ وتمضى فى حديثها فتقول :

قال رسـول الله صلى الله عليـه وسلم حينما ذكرت له عائشـة : « اذهبى فاذكريها على » . فجاءت فدخلت بيت أبى بكر فوجدت أم رومان أم عائشة رضى الله عنهما ، فقالت : يا أم رومان ! ماذا أدخل الله عليكم من الخير والبركة ؟ أرسلنى رسول الله صـلى الله عليه وسـلم أخطب عليـه عائشـة ، قالت : وددت ، انتظرى أبا بكر فانه آت ، فجاء أبو بكر رضى الله عنه ، فقالت : يا أبا بكر ماذا أدخل الله عليكم من الخير والبركة ؟ أرسلنى رسول الله صلى الله عليـه وسلم أخطب عليه عائشة ، فقال : هل تصلح له ؟ انما هى بنت أخيه .

فرجعت الى رسول الله فذكرت ذلك له ، فقال : « ارجعى اليه فقولى له : أنت أخى فى الاسـلام وأنا أخوك ، وابنتك تصلح لى » ، فرجعت فذكرت ذلك له ، فقال : انتظرى وخرج !

وكان المطعم بن عدى قد خطب عائشة من قبل لابنه جبير ، فكان على أبى بكر ــ رضى الله عنه ــ أن يتحلل أولا من وعده ، ولم ير أن يخلف هــذا الوعد حتى ولو من أجل أحب الناس الى قلبه : الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ الذى يكن له اعزازا يفوق كل اعزاز ، فأبو بكر رضى الله عنه لم يؤثر عنه أنه أخلف وعــدا قط .

دخل أبو بكر ــ رضى الله عنه ــ على المطعم ، وكانت معه امرأته ، وسأله الرأى فى ابنته التى خطبها من قبل لابنه ، فأقبل الرجل على امرأته يســألها : ما تقولين فيما يقول أبو بكر ؟ فقالت زوجة المطعم مخاطبة أبا بكر : لعلنا ان أنكحنا هــذا الصبى اليك تصبئه وتدخله فى دينك الذى أنت عليــه . فلم يجبها أبو بكر وسأل المطعم بن عدى : ما تقول أنت ؟ فكان جوابه : انها تقول ما تسمع ، فكان هــذا تحللا لأبى بكر من وعده ، فخرج من عنده وقد أذهب الله ما فى نفسه .

قال لخولة : ادعى لى رسول الله صلى الله عليه وســلم فدعته ، فزوجها اياه وعائشة بنت ست أو سبع .

* * *

ثم كانت الهجرة الى المدينة وهاجر آل أبو بكر . وتروى عائشة فتقول : قالت : فجاء رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فدخل بيتنا ، فجاءت بى أمى وأنا فى أرجوحة ترجح بى بين

غدفين ؛ فأنزلتنى من الأرجوحة ولى جميمة فصرفتها ومسحت وجهى بشىء من المـــاء ، ثم أقبلت تقودنى حتى وقفت عنــد الباب ، وانى لأنهج ، حتى سكن بعض نفسى ، ثم دخلت بى ، فاذا رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ جالس على سرير فى بيتنا وعنده رجال ونســاء من الأنصار ، فاحتبستنى فى حجرة ثم قالت : هؤلاء أهلك فبارك الله فيهم وبارك فيك !

فوثب الرجال والنســاء فخرجوا ، وبنى بى رســول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فى بيتنا ، ثم تستمر فى حديثها فتقول : ما نحرت على جزور ولا ذبحت على شاة ، حتى أرسل الينا سعد بن عبادة رضى الله عنه بجفنة كان يرسل بها الى رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ اذا دار الى نسائه وأنا بنت تسع ســنين[1] .

هــذه قصة الزواج ، كما روتها صاحبتها عائشة ــ رضى الله عنها ــ وهى غنية عن التعريف ، فهى بنت أبى بكر الصديق ابن أبى قحافة أول من آمن بالرسول ورفيقه فى الغار ومصدقه فى كل ما جاء به ووزيره وخليفته من بعده .

وأمهــا أم رومان بنت عامر الكنانية من الصــحابيات الجليلات ، أسلمت مع زوجها وأخلصت لدينها وهاجرت الى

---

(١) أخرجاه فى الصحيحين .

المدينة.ثم توفيت فى حياة الرسول فنزل قبرها واستغفر لها وقال : « اللهم لم يخف عليك ما لقيت أم رومان فيك وفى رسولك » •

ولدت عائشة ــ رضى الله عنها ــ بمكة بعد أربع سنوات من بعثه الرسول ، وقد رأى ــ صلى الله عليه وسلم ــ ابنة صديقه وصفيه وهى تشب عن الطوق ، وكثيرا ما أوصى بها أمهــا •

ولم تكن خطبة الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ عائشة ــ رضى الله عنها ــ وهى صــغيرة بدعا ولا جديدا جاء به محمد صلى الله عليه وسلم من عنده ، بل سار على التقاليد المعروفة والمتوارثة لذلك ، فلم يكن محل انتقاد من أحد ولا مثار جدل ، فلم يكن هناك مطعن ولا منفذ للاتهام والتجريح ، بل لم نر من أعداء الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ من تعرض لهذا الزواج ببنت شــفة •

دخلت عائشة ــ رضى الله عنها ــ بيتها ، وهو حجرة من الحجرات التى بنيت حول المســجد من اللبن وسعف النخيل ، وقد وضع فيه فراش من أدم حشوه ليف ليس بينه وبين الأرض الا الحصير ، وعلى فتحة الباب أسدل ستار من الشعر •

كانت عائشة ــ رضى الله عنها ــ صــغيرة السن ، لكنها كانت متفهمة للحيــاة المقبلة عليهــا ، واعية للمهمة الملقاة عليها ،

فهى ليست زوجـــة عادية بل هى زوجة رسول ونبى ، وعليها أن تشاركه العبء الملقى عليـــه ، وتســـاعده فى نشر الرسالة ، وتحفظ الأسس التى بنيت عليها الدعوة وتنشرها فى الآفاق .

ولكن ذلك لم يخرجها عن طبيعتها فهى الصـــغيرة التى تلعب أحيانا مع غريناتها . روى عنها أنها قالت :

كنت ألعب بالبنـــات (اللعب) ويجئن صواحبات لـــى فيلعبن معى ، فاذا رأين رسول الله ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ انقمعن منه ، فكان رسول الله يدخل فيلعبن معى .

كانت كبيرة القلب . ذكيـــة ، حازمة ، حكيمة ، وهـــذا ما جعل النبى عليـــه الســـلام يحبها حبا شـــديدا ويعطف عليهـــا ، فنالت من المنزلة عنده ما لم تنله غيرها من نســـائه اللائى كن معها .

روى عن رســـول الله صلى الله عليـــه وسلم أنه قال : « يا عائشة حبك فى قلبى كالعروة الوثقى »(1) .

وكانت عائشة ـــ رضى الله عنها ـــ تسأله من وقت لآخر : كيف حال العـــروة الوثقى يا رســـول الله ؟ فيقول لهـــا : « انها على حالها لم تتغير ولم تتبدل » .

دخل عليهـــا ضرائر كثيرات ، مختلفات الجمال ، متعدداته

(1) حديث العروة الوثقى من الأحاديث الموضوعة .

المناقب ، متنوعات الجنسية ، كلهن ثيبات ؛ وما كان لمثل عائشة ـ رضى الله عنها ـ ومكانتها الا أن تغار ، لحبها الكبير لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وللطبيعة التى خلق الله المرأة عليها ، ولكن ليس علينا أن نبالغ فى الغيرة التى كانت لعائشة ـ رضى الله عنها ـ ولا أن نحملها مالا تطيق ، ولم يكن ذلك بغريب على رسول الانسانية وهو القائل :

« ان الله كتب الغيرة على النساء ، والجهاد على الرجال فمن صبر منهن ايمانا واحتسابا كان له مثل أجر الشهيد »[1] .

وربما غار زوجات الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ من عائشة ـ رضى الله عنها ـ فقد روى عنها أنها قالت : أرسل أزواج النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فاطمة بنت النبى صلى الله عليه وسلم ـ رضى الله عنها ـ فاستأذنت ، والنبى مع عائشة فى مرضها ، فأذن لها ، فدخلت عليه فقالت : يا رسول الله : ان أزواجك أرسلننى اليك يسألنك العدل فى ابنة أبى قحافة. فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم : « أى بنية .. ألست تحبين ما أحب » ؟ فقالت : بلى . قال : « فأحبى هذه » ! قالت : فقامت فاطمة رضى الله عنها فخرجت ، فجاءت أزواج النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فحدثتهن بما قالت وبما قال لها ، فقلن : ما أغنيت عنا من شىء فارجعى الى النبى ـ صلى الله

(١) الجامع الصغير للسيوطى ج ١ ص ١٢٠ .

عليه وسلم . فقالت فاطمة رضى الله عنها : والله لا أكلمه فيها أبدا . فأرسل أزواج النبى صلى الله عليه وسلم زينب بنت جحش ـ رضى الله عنها ـ فاستأذنت ، فأذن لها فدخلت فقالت : يا رسول الله .. أرسلنى اليك أزواجك يسألنك العدل فى ابنة أبى قحافة . قالت عائشة ـ رضى الله عنها : ووقعت فى زينب . قالت عائشة : فطفقت أنظر الى النبى صلى الله عليه وسلم حتى يأذن لى فيها . فلم أزل حتى عرفت أن النبى صلى الله عليه وسلم لا يكره أن أنتصر ، قالت : فوقعت بزينب فلم أنشبها أن أفحمتها . فتبسم النبى ـ صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : « انها ابنة أبى بكر »(١) .

وروى عن عروة قال : كان الناس يتحرون بهداياهم يوم عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت : فاجتمع صواحبى الى بيت أم سلمة رضى الله عنها فقالوا : يا أم سلمة وانا نريد الخير كما تريد عائشة فمرى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأمر الناس أن يهدوا اليه حيثما كان . قالت : فذكرت ذلك أم سلمة للنبى صلى الله عليه وسلم قالت : فأعرض عني فلما كان فى الثالثة ذكرت له ذلك فقال : « يا أم سلمة لا تؤذينى فى عائشة فانه والله ما نزل على الوحي وأنا فى لحاف امرأة منكن غيرها »(٢) .

---

(١) الحديث صحيح أخرجه مسلم فى فضائل عائشة بهذا اللفظ ، وأبو يعلى والبزار مختصرا بغير هذه القصة .

(٢) الحديث صحيح أخرجه البخارى ومسلم فى فضائل عائشة والنسائى فى عشرة النساء والترمذى فى فضائل عائشة .

وربما غارت عائشة ـ رضى الله عنها ـ من مارية المصرية لأنها رزقت الابن ، وربما غبطت خديجة ـ رضى الله عنها ـ لأنها لم تصل الى مكانتها من قلب الرسول ، أو غارت من أول يوم تنضم زوجة الى بيوت النبى ، ولكن الشىء الذى كانت تعتقده ، أن ما يجرى فى بيوت النبى والأحداث المتجددة كلها تخضع لحكمة ، وأن الرسـول ليس ملكا لها ولا لزوجاته وانما هواه تبع لما جاء به • هـذه حقيقة ، والحقيقة كانت تغيب عنهـا فى بعض الأحيان فتصدر منهـا كلمة أو انفعالة ، فكان النبى صلى الله عليه وسلم يتقبل ذلك متسامحا رؤوفا رحيما • قالت له حينما تزوج زينب بنت جحش رضى الله عنها تنفيـذا لأمر رب السماء : « ما أرى ربك الا يسارع فى هواك » •

وحينما حمل ابنـه ابراهيم يوما ، دعا عائشة رضى الله عنها لترى فلذة كبده ، ولترى ملامح أبيه فيه ، ولكنها انفعلت وغضبت •

فحينما كانت تشتد بهـا الغيرة ، كان النبى صلى الله عليه وسلم يلتمس لها عذرا فيقول : «ويحها لو استطاعت ما فعلت» •

وقد يسـألها أحيانا : أغرت ؟ فتجيب : وما لى لا يغار مثلى على مثلك •

ومن طريف اجابته ـ صلى الله عليه وسـلم ـ أن فاطمة رضى الله عنها ذكرت لرسول الله ـ صلى الله عليـه وسـلم ما قالته عائشة ـ رضى الله عنها ـ فقد قالت لها مرة : ان رسول

الله تزوجنى بكرا وتزوج أمك ثيبا • فذكرت فاطمة رضى الله عنها باكية لأبيها ما قالته عائشة • فقال لها الرسول الأعظم : « قولى لها : ان أبى تزوج أمى وهو بكر ولم يتزوج قبلها » !

ولعل أعظم ما تعرضت له عائشة رضى الله عنها فى حياة الرسول حادثة الافك ، وفيها ألقى على المسلمين درس يجب عليهم أن يعوه جيدا ، وأن يبتعدوا عن رمى المحصنات ، وأن يكون لنا نحن المسلمين فيما حدث لأم المؤمنين عظة وعبرة •

وتقص أم المؤمنين ــ رضى الله عنها ــ ما حدث فتقول :

« ••• كان رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ اذا أراد أن يخرج لسفر أقرع بين نسائه ، فأيها خرج سهمها خرج بها رسول الله معه • وأقرع بيننا فى غزوة غزاها فخرج فيها سهمى ، ثم قفلنا من الغزوة الى أن دنونا من المدينة ، فقمت حين آذنوا بالرحيل فتمشيت حتى جاوزت الجيش وقضيت من شأنى ، وأقبلت الى الرحل فلمست صدرى فاذا عقدى قد انقطع ، فرجعت ألتمسه فحبسنى ابتغاؤه ، وأقبل الى الرهط الذين كانوا يرحلون(1) فحملوا هودجى وهم يحسبون أنى فيه ، وكانت النساء اذ ذاك خفافا لم يهيلهن(2) ولم يغشهن انما يأكلن العلقة من الطعام ، فلم يستنكر القوم ثقل الهودج حين رحلوه ورفعوه اذ كنت مع ذاك جارية حديثة السن ••

---

(1) أى يحملون الرحل على البعير •
(2) يثقلهن اللحم والشحم •

« ووجدت عقدى فجئت منازل الجيش وليس بهـا داع ولا مجيب ، فتيممت منزلى الذى كنت فيـه ، وظننت أن القوم يفقدوننى فيرجعون الى .

« فبينما أنا جالسة فى منزلى غلبتنى عينى فنمت . وكان صفوان بن المعطل السلمى قد عرس من وراء الجيش فأدلج فأصبح عند منزلى ، فرأى سواد انسان نائم ، فعرفنى حين رآنى واسترجع . فاستيقظت وخمرت وجهى بجلبابى والله ما يكلمنى كلمة ، ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه حتى أناخ راحلته وركبتها ، وانطلق يقودها حتى أتينا الجيش بعد ما نزلوا فى نحر الظهيرة .

« فهلك من هاك فى شـأنى ، وكان الذى تولى كبـره عبد الله بن أبى سلول ، فاشتكيت حين قدمنا المدينة شـهرا والناس يفيضون فى قول أهل الافك ولا أشعر بشىء من ذلك ..

« .. ويريبنى فى وجعى أنى لا أعرف من رسـول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ اللطف الذى كنت أرى منه حين أشتكى . انما يدخل رسول الله فيسلم ثم يقول : كيف تيكم ؟ فذلك يريبنى ، ولا أشـعر بالشر حتى خرجت بعد ما نقهت وخرجت معى أم مسطح قبل المناصع ..

ثم عدنا فعثرت أم مسطح فى مرطها ، فقالت : تعس مسـطح .

قلت : بئس ما قلت ، أتسبين رجلا قد شهد بدرا !

قالت : أى هنتاه ، أو لم تسمعى ما قال ؟ قلت : وماذا قال ؟

فأخبرتنى بقول أهل الافك ، فازددت مرضا الى مرضى ، فلما رجعت الى بيتى فدخل على رسول الله ــ صلى الله عليــه وسلم ــ فسلم ثم قال : كيف تيكم ؟ استأذنت أن آتى أبوى ، أريد أن أتيقن الخبر من قبلهما ، فأذن لى رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فجئت أبوى فقلت لأمى : يا أمتاه •• ما يتحدث الناس ؟

قالت أمى : يا بنية هونى عليك ، فوالله لقلما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها ولهــا ضرائر الا كثر عليها القول •

قلت : أى سبحان الله ! وقد تحدث الناس بهذا ؟

فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لى دمع ، ولا أكتحل بنوم ثم أصبحت أبكى •

ودعا رســول الله ــ صلى الله عليــه وسلم ــ على بن أبى طالب ــ كرم الله وجهه ــ وأسامة بن زيد حين استلبث(١) الوحى يستشيرهما فى فراق أهله • فأما أســامة بن زيد فأشار على رسول الله ــ صلى الله عليــه وسلم ــ بالذى يعلم من براءة أهله ، وبالذى يعلم فى نفســه لهم من الود ، وقال لرســول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : هم أهلك ولا نعلم الا خيرا •

---

(١) أبطأ •

وأما على بن أبى طالب ــ كرم الله وجهه ــ فقال : لم يضيق الله عليك ، والنســاء سواها كثير •• وان تسأل الجارية تصــدقك •

فدعا رسول الله ــ صلى الله عليــه وسلم ــ بريرة يسألها : هل رأيت من شىء يريبك من عائشة ؟ قالت : والذى بعثك بالحق نبيا ان رأيت عليها(١) أمرا قط قد أغمصه(٢) عليها أكثر من أنها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها ، فتأتى الداجن فتأكله ••

وبكيت يومى ذاك لا يرقأ لى دمع ولا أكتحل بنوم ، ثم بكيت ليلتى المقبلة لا يرقأ لى دمع ولا أكتحل بنوم وأبواى يظنان أن البكاء فالق كبدى •

فبينما نحن على ذلك دخل رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فسلم ثم جلس وتشهد ثم قال : « أما بعد يا عائشة •• فانى قد بلغنى عنك كذا وكذا ، فان رأيت أنك بريئة فسيبرئك الله ، وان كنت ألممت بذنب فاستغفرى الله وتوبى اليه ، فان العبد اذا اعترف بذنب ثم تاب تاب الله عليه •

فلما قضى رسول الله ــ صلى الله عليــه وسلم ــ مقالته قلص دمعى حتى ما أحس منه بقطرة ، فقلت لأبى : أجب عنى رسول الله ، فقال : والله ما أدرى ماذا أقول لرسول الله •

---

(١) أى ما رأيت . (٢) أعيبه عليها .

« فقلت لأمى : أجيبى عنى • قالت كذلك : والله ما أدرى ماذا أقول لرسول الله •

قلت ــ وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيرا من القرآن ــ : انى والله لقد عرفت أنكم سمعتم بهــذا حتى استقر فى نفوسكم وصدقتم به ، فان قلت لكم انى بريئة ــ والله يعلم أنى بريئة ــ لا تصدقوننى ، ولئن اعترفت لكم بالأمر ، والله يعلم أنى بريئة ، لتصدقوننى ، والله والله •• ما أجد لى ولا لكم مثلا الا كما قال أبو يوسف :

« فصبر جميل ، والله المستعان على ما تصفون »[1] •

ثم تحولت فاضطجعت على فراشى •

•• فوالله ما رام رسول الله ــ صلى الله عليــه وسلم ــ مجلسه ، ولا خرج من أهل البيت أحد حتى أنزل الله عز وجل على نبيه ، فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء عند الوحى ، حتى انه يتحدر منه مثل الجمان فى اليوم الشاتى •

فلما سرى عن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وهو يضحك ، كان أول كلمة تكلم بها أن قال : « أبشرى يا عائشة ! •• أما الله فقد برأك » •

قالت لى أمى : قومى اليه • قلت والله لا أقوم اليه • ولا أحمد الا الله هو الذى برأنى •

---

(١) يوســـف : ١٨ •

ثم خرج الى المسجد ، وتلا على الناس من وحى الله :

« ان الذين جاءوا بالافك عصبة منكم ، لا تحسبوه شرا لكم ، بل هو خير لكم ، لكل امرىء منهم ما اكتسب من الاثم ، والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم • لولا اذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا وقالوا هـذا افك مبين • لولا جاءوا عليـه بأربعة شـهداء ، فاذ لم يأتوا بالشـهداء ، فأولئك عند الله هم الكاذبون • ولولا فضل الله عليكم ورحمته فى الدنيا والآخرة لمسكم فى ما أفضتم فيه عذاب عظيم • اذ تلقونه بألسنتكم وتقولون بأفواهـكم ما ليس لـكم به علم وتحسبونه هينا وهو عند الله عظيم • ولولا اذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهـذا سبحانك هـذا بهتان عظيم • يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبدا ان كنتم مؤمنين • ويبين الله لكم الآيات ، والله عليم حكيم • ان الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذاب أليم فى الدنيا والآخرة ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون »[1] •

* * *

« موقف صعب عاشته بنت أبى بكر ــ رضى الله عنها ــ دامية الفؤاد ، مجروحة الكرامة ، كانت ضحية نفوس مريضة ، واشاعات مغرضة وأراجيف نشرها عصابة سـوء ينتهزها قلة من المنافقين ليسيئوا الى النبى عليه الصلاة والسلام ، ولم

---

(١) النور : ١١ ــ ١٩ •

تكف المسكينة عن البكاء ليلها ونهارها ، فمس الشرف بسوء أمر بالغ الخطورة ، لا ينجي صاحبه فى معظم الأحيان الا بمعجزة كهذه المعجزة تقطع ألســنة المغرضين ، وتقضى على مخطط المنافقين ، وتبعد الظانين والشاكين عن التردد والحيرة ، وتؤكد حجــة الذين بيدهم الحق ، ولا يستطيعون رفعهــا عالية .
أما والحمد لله فقد أظهر الله الحق فليس هنــاك مكان للباطل ، فانتهت الغمة وذهب الكرب ، وعادت أم المؤمنين الى بيتها مرفوعة الرأس ولسانها يلهج بشكر الله وحمده ، وتردد الآيات الكريمة التى حلت مشكلتها وردت اليها كبرياءها ورفعت من كرامتها » .

* * *

بدأت حياة جديدة قوامها الرازنة والحكمة ، واستفادت الدعوة الاســلامية من هــذه المحنة الكبيرة (وسنتعرض لهذا عند الكلام على الحكمة من التعدد) ، فراحت تدور فى فلك الدعوة ، تخدم الفكرة ، وتنشر المبادىء التى يدعو اليها الرسول — صلى الله عليه وسلم — وأراد النبى أن يزيد فى تكريمها فاتخذ رايته الأولى فى غزوة خيبر من بردها — رضى الله عنهــا — ثم عاشت مع الرسول — صلى الله عليه وسلم — بقية أيامه ، وقد ذهبت أيام المحنة والابتلاء والاختبــار ، لتجنى معه ثمــار الكفاح الطويل المرير والنصر المؤزر الذى كان يعود به النبى من غزواته والاجتماع بالوفود التى تأتى من جميع أنحاء الجزيرة .

* * *

تمت الرســـالة ونزل قوله تعالى :

« اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاســـلام دينا »[1] •

ومازال النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ على عهده وفيا لزوجاته يقسم بينهن ويعدل فى قسمه • وكان فى بيت ميمونة ــ رضى الله عنها ــ وقد اشتد به المرض ، واجتمعت الزوجات حوله ، وكان يريد أن يتمرض فى بيت عائشة ــ رضى الله عنها ــ فنظر اليهن بحياء وأدب كما كان دائما ثم قال متسائلا : « أين أنا غـــدا •• أين أنا غـــدا ؟ » •

وأدركن ما وراء هـــذا السؤال ، انه يريد أن يكون عند عائشـــــة ــ وقد ثبت أنه فى مصلحة الدعوة والمسلمين ــ فقلن جميعا : « يا رسول الله •• قد وهبنا أيامنا لعائشة » •

وفى بيتها لم يطل به المقام ، زاد عليه المرض ، فأخذته فى حجرها فأخذ يثقل فراحت تنظر فى وجهـــه ، فاذا بصره قد شخص وهو يقول : « بل الرفيق الأعلى فى الجنة » •

تقول أم المؤمنين عائشة ــ رضى الله عنها ــ : « وقبض رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ بين سحرى ونحرى •• فمن ســـفهى وحداثة سنى أنه ــ صلى الله عليه وسلم ــ قبض

---

(١) المـــائدة : ٣ .

وهو فى حجرى ، ثم وضعت رأسه على وســادة ، وقمت التدم مع النســاء وأضرب وجهى »(١) •

* * *

تفرغت أم المؤمنين ــ رضى الله عنها ــ لتأدية الواجب عليها نحو الرســالة الخالدة ، وكانت بحرا زاخرا فى الدين ، فقها وتشريعا ، حيثما تسير يسير العلم والفضــل والتقى ، ويكفيها فخرا أنها حفظت للأمة ثروة ضخمة من سنته ــ صلى الله عليه وسلم ــ قولا وخلقا وسلوكا •

قال هشام بن عروة عن أبيه : ما رأيت أحدا أعلم بفقه ولا بطب ولا بشعر من عائشة ــ رضى الله عنها ••

وروى عن أبى موسى الأشعرى ــ رضى الله عنه ــ أنه قال : « ما أشــكل علينا أصحاب رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ حديث قط فسألنا عائشة ــ رضى الله عنها ــ الا وجدنا عندها منه علمــا » •

وقال أبو الضحى عن مسروق : « رأيت مشيخة أصــحاب رسول الله ــ صــلى الله عليه وســلم ــ الأكابر يســألونها عن الفرائض » •

وتشــهد كتب الحديث بعلمهــا الغزير وعقلهــا الكبير ،

---

(١) جاء هــذا فى تاريخ الطبرى جـ ٣ ص ١٩٧ ، وان كنــا نسمو بأم المؤمنين عن مثل هــذا الفعل .

فلم يرو فى الصحيح عن أحد من الرجال أكثر مما روى عنها الا شخصان هما أبو هريرة وعبد الله بن عمر رضى الله عنهما .

قال الزهرى « لو جمع علم عائشة — رضى الله عنها — الى علم جميع أزواج النبى — صلى الله عليه وسلم — وجميع النساء ، كان علم عائشة — رضى الله عنها — أكثر » .

ولقد أحبت أن تشترك فى الحياة العامة ، ثم اجتهدت وأفضى بها اجتهادها أن تشترك مع أحد طرفى النزاع بعد مقتل أمير المؤمنين عثمان بن عفان — رضى الله عنه ، لمحاربة الامام على بن أبى طالب — كرم الله وجهه — وانتهت بأن أعيدت الى بيتها مكرمة معززة بعد هزيمة من كان معها ، اكراما للرسول صلى الله عليه وسلم(١) .

* * *

ومن أحسن ما قيل فى وصف أم المؤمنين — رضى الله عنها — :

« كانت عائشة — رضى الله عنها — جميلة الوجه ، دقيقة الخلقة ، حسنة التقسيم ، وسيمة الطلعة ، قوية النظرات ، ذات عينين تدل سيماهما على الرفاهية والرقة والنعومة ، عالية الجبين ، بسامة ، سريعة النطق ، تحسن الاستماع

---

(١) هذا على فرض صحة الواقعة ، والا فهناك من ينكر وقوع حادثة الجمل فى بحث مستفيض ليس هذا مجاله .

والاصغاء ، حادة اللسان فى غير غلظة ، سريعة الغضب أحيانا سريعة الرضا ، دائما تغفر لخصومها الا رأيا واحدا لم تغفر لصاحبه(١) . وكانت شديدة الغيرة على رسول الله ، ولكنها لا تتحكم فيه ، ولا تتسلط على ارادته ، ولا تسعى فى تقليل مكانته كما تفعل أى امرأة غيور ، وكانت صائبة النظر دائما فيما لا مساس برضاه أو بالحياة العامة ، أو بنشر لواء الطمأنينة على بنيه وحياته » .

* * *

أما ما روى فى صفاتها وكرمها وزهدها وتعبدها واجتهادها وخوفها من الله ومواعظها وكلامها وعلمها وفصاحتها ، فشيء كثير .

عن عطاء قال : « بعث اليها معاوية بطوق ذهب فيه جوهر قوم بمائة ألف ، فقسمته بين أزواج النبى — صلى الله عليه وسلم » .

وعن أم ذرة — وكانت تغشى عائشة — رضى الله عنها — قالت : « بعث اليها ابن الزبير بمال فى غرارتين — قالت : أراه ثمانين ومائة ألف — فدعت بطبق — وهى يومئذ صائمة —

---

(١) رأى الامام على — كرم الله وجهه — حينما أشار على النبى ، صلى الله عليه وسلم ، فى حادثة الافك — ولم تكن قد ظهرت براءة عائشة رضى الله عنها — بألا يشغل باله بها ، وأن يتزوج غيرها ان شاء ، والنساء كثيرات . فأغضب هذا عائشة ، وكان فى نفسها شيء من كلام على والله أعلم .

فجلست تقسمه بين الناس ، فأمست وما عندها من ذلك درهم •
فلما أمست قالت : يا جارية هلمى فطرى • فجاءتها بخبز وزيت
فقالت لها أم ذرة : أما استطعت مما قسمت اليــوم أن تشترى
لنا بدرهم لحما نفطر عليــه ، فقالت لها : لا تعنفينى •• لو كنت
ذكرتنى لفعلت ! •

وعن عروة قال : « لقد رأيت عائشة ــ رضى الله عنها ــ
تقســم سبعين ألفا وهى ترقع درعها » ! •

* * *

وعن مالك بن الطفيــل : أن عائشــة ــ رضى الله عنها ــ
حدثت أن عبد الله بن الزبير قال فى بيع أو عطاء أعطته عائشة :
والله لتنتهين أو لأحجرن عليهــا ، فقالت : أهو قال هــذا ؟
قالوا : نعــم • قالت : هــو لله على نذر أن لا أكلم ابن الزبير
أبدا • فاستشفع ابن الزبير اليها حين طالت الهجرة • وكلم
ابن الزبير كثيرا من الصــحابة وهى مصرة على رأيها • فلما
أكثروا على عائشة من التذكرة والتحريج ، طفقت تذكر من يتكلم
معها وتبكى وتقول : انى نذرت والنذر شــديد • فلم يزالوا
بها حتى كلمت ابن الزبير ، وأعتقت فى نذرها ذلك أربعين رقبة ،
وكانت تذكر نذرها بعد ذلك فتبكى حتى تبلل بدموعها خمارها •

وعن القاســم أن عائشة ــ رضى الله عنها ــ كانت كثيرة
الصيام وقال : كنت اذا غدوت أبدأ ببيت عائشة أســلم عليها ،
فغدوت يوما فاذا هى قائمة تسبح وتقرأ :

« فمن الله علينا ووقانا عذاب السموم »[1] .

وتدعو وتبكى وترددها ، فقمت حتى مللت القيام فذهبت الى السوق لحاجتى ، ثم رجعت فاذا هى قائمة كما هى تصلى وتبكى .

وروى عنها أنها قالت : « انكم لن تلقوا الله بشىء خير لكم من قلة الذنوب ، فمن سره أن يسبق الدائب المجتهد فليكف نفسه عن الذنوب » .

* * *

وتقدمت بها السنون ، وبلغت السادسة والستين ومرضت أم المؤمنين ــ رضى الله عنها ــ يقول ذكوان حاجب عائشة : انه جاء عبد الله بن عباس يستأذن على عائشة ــ رضى الله عنها ــ وعند رأسها ابن أخيها عبد الله بن عبد الرحمن ، فقلت : هذا ابن عباس يستأذن ، فأكب عليها ابن أخيها عبد الله فقال : هذا ابن عباس فقالت : دعنى من ابن عباس ، فقال لها : يا أماه ان ابن عباس من صالحى بنيك يسلم عليك ويودعك فقالت : ائذن له ان شئت ، فأدخلته ، فلما دخل قال : أبشرى فما بينك وبين أن تلقى محمدا ــ صلى الله عليه وسلم ــ والأحبة الا أن تخرج الروح من الجسد ، كنت أحب نساء رسول الله الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يكن رسول الله يحب الا طيبا ، وسقطت قلادتك ليلة الأبواء ، فأصبح

(١) الطور : ٢٧ .

رسول الله حتى تصبح فى المنزل ، وأصبح الناس ليس معهم ماء ، فأنزل الله عز وجل : « **فتيمموا صعيدا طيبا** »[1] •

فكان هذا من سببك[2] وما أنزل الله عز وجل لهذه الأمة من الرخصة ، وأنزل الله عز وجل براءتك من فوق سبع سموات ، جاء بها الروح الأمين فأصبح ليس مسجد من مساجد الله عز وجل يذكر فيه الله الا تتلى فيه آناء الليل وآناء النهار • فقالت : دعنى منك يا ابن عباس •• فهو الذى نفسى بيده لوددت أنى كنت نسيا منسيا •

* * *

واشتدت العلة على أم المؤمنين ــ رضى الله عنها ــ ولبت نداء ربها ليلة الثلاثاء لسبع عشرة من رمضان سنة ثمان وخمسين وهى ابنة ست وستين سنة •

وهرع أهل المدينة الى بيتها وهم يبكون حبيبة رسول الله والقريبة الى قلبه ، ولف الليل المدينة ، وصلى أبو هريرة على أم المؤمنين ــ رضى الله عنها ــ وحمل الناس المشاعل فى موكب يليق بأم المؤمنين ــ رضى الله عنها ــ ودموع الناس لا تنقطع ، ودفنت كما أوصت بالبقيع مع صواحباتها رضى الله عنهن جميعا •

* * *

---

(١) المائدة : ٦ ، والنساء : ٤٣ •

(٢) فكان ذلك فى سبيلك .

السيدة حفصة بنت عمر (رضى الله عنها)

تزوجت حفصة ــ رضى الله عنها ــ خنيس بن حذافة بن قيس بن عدى السهمى القرشى ، من المسلمين الأولين ومن الذين هاجروا الى الحبشة ثم الى المدينة تاركا بلده فى سبيل عقيدته وايمانه •

شهد بدرا وأبلى فيها بلاء حسنا ، ثم جاءت غزوة أحد ، وقاتل فيها قتال الأبطال ، وسجل له التاريخ الاسلامى صفحة خالدة من المجد والبطولة والايمان ، فكان كلما أصيب بجرح ضمده ، وعاد الى القتال غير مبال بما هو فيه أو عليه القوم ، حتى مزقت النبال جسده فخارت قواه ، وخر صريعا ملبيا نداء ربه •

واستشهد وترك حفصة ــ رضى الله عنها ــ شبابه لم تتجاوز العشرين ، وأهم أمرها والدها عمر بن الخطاب ، وأراد ــ كما هى العادة عند العرب ــ أن يفرج كربتها ، ويختار لها زوجا ، فلقى عثمان رضى الله عنهما فقال : ان شئت أنكحتك حفصة ، قال : سأنظر فى أمرى ، فلبث ليالى ثم قال : قد بدا لى أن لا أتزوج •

ويكمل القصة عمر ــ رضى الله عنه ــ فيقول : قلت

لأبى بكر رضى الله عنه : ان شئت أنكحتك حفصة ، فصمت ، فكنت عليـــه أوجد منى على عثمـــان ، فلبث ليـــالى ، ثم خطبها النبى فأنكحتها اياه ، فلقينى أبو بكر فقال : لعلك وجدت على حين عرضت على حفصة ، فلم أرجع اليك شـــيئا فقلت : نعم ، قال : انه لم يمنعنى أن أرجع اليك الا أنى علمت أن النبى صلى الله عليه وســـلم ذكرها ، فلم أكن لأفشى سره ، ولو تركها لقبلتها •

ثم قال عمر رضى الله عنه : فشكوت عثمان الى رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فقال الرســـول : يتزوج حفصة خير من عثمان ، ويتزوج عثمان خـــيرا من حفصة ، فزوجـــه النبى صلى الله عليه وسلم ابنته رقية •

وكان زواج النبى صلى الله عليه وسلم من حفصة بعد زواجه من عائشة رضى الله عنها سنة ثلاث من الهجرة ، ودخلت بيتا فيه ســـودة وعائشـــة رضى الله عنهما ، وكانت حفصـــة ــ رضى الله عنها ــ بها شـــدة ، وما نشك أن أباها نصحها كثيرا ، بل لعله حذرها حتى لا يقع منها أى شىء يسىء الى الرسول عليه الصلاة والسلام ، ولذلك فقد كان يرقب تصرفاتها • قال لها يوما وقد سمع بشىء بينها وبين عائشة : « أين أنت من عائشة ، وأين أبوك من أبيها » ! •

وسمع يوما من زوجته ــ حينما أرادت أن تراجعه فى أمر فلم يقبل المراجعة ــ أن حفصة ــ رضى الله عنها ــ تراجع

الرسول الكريم ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى ليظل يومه غضبان ، فانطلق من فوره ودخل عليها يسألها : هل حقيقة ما سمع من أن حفصة تراجع النبى صلى الله عليه وسلم حتى يظل يومه غضبان ، ولما أجابته ابنته ، ثار وغضب وحذر ونهى ، مبديا أسفه على ما تقوم به ابنته ، مبينا مكانة عائشة رضى الله عنها عند الرسول صلى الله عليه وسلم فهى حب الرسول وابنة صاحبه أبى بكر ، وعليها أن تعرف قدرها ومكانتها .

ولكن حفصة ـ رضى الله عنها ـ لا تترك ما جبلت عليه من طبيعة ، فقد ذكر صلى الله عليه وسلم أصحابه الذين بايعوه تحت شجرة الرضوان فى الحديبية فقال : « لا يدخل النار ، ان شاء الله ، أصحاب الشجرة الذين بايعوا تحتها » .

قالت حفصة رضى الله عنها : «بلى يا رسول الله» فانتهرها ، فتلت الآية :

« وان منكم الا واردها ، كان على ربك حتما مقضيا »(١)

فتلا النبى صلى الله عليه وسلم الآية بعدها :

« ثم ننجى الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا »(٢)

قد يكون ذلك شيئا هينا ، والرسول صلى الله عليه وسلم يتقبل ما يأتى به زوجاته ، ويعاملهن بما جبل عليه من الخلق

---

(١) مريم : ٧١ .   (٢) مريم : ٧٢ .

والصبر والحلم والكرم • ولكن اذا كان هنــاك تماد وخروج عن الحد المألوف ، وتعريض صاحب الدعوة الى ما قد يسىء السـمعة ، وتلوكه الألسنة ، فان الحزم والعلاج الناجع يكون الرائد والأصل •

جاءت مارية ــ رضى الله عنها ــ الى النبى صلى الله عليه وسـلم لأمر ما فى بيت حفصة رضى الله عنها وكانت غائبة فى بيت أبيهـا ابن الخطاب ، فلما عادت حفصة ، وجدت الستر مسـدلا ، وعرفت أن مارية بداخل الحجـرة وانتظرت حتى انصرفت مارية ، ودخلت حفصة على النبى باكية مهمومة ولم تهدأ حتى حرم الرسـول مارية على نفسـه ثم أوصاها بأن تكتم السر •

ولكن حفصة قصت على عائشة قصة مارية ــ رضى الله عنهن ــ وما كان من أمر التحريم ، ولم يمض وقت طويل حتى اجتمع نسـاء النبى متظاهرات ضـد مارية ، وأراد النبى أن يهـون من الأمر ويوصيهن بالتعقـل وترك ما هن فيـه من ثورة وغضب •

ولكنهن تمادين فيما ذهبن اليه ، فاعتزلهن جميعا ، وأعلن أنه منقطع عنهن شـهرا ، لينصرف الى ما هو أهم وأنفع •

ولعله أراد أن يؤدب من كانت السبب فى ذلك ، فطلق حفصة تطليقة واحدة •

وغضب عمر رضى الله عنه غضبا شـــديدا ، لأن ابنته كانت سببا فى ايذاء رســـول الله صلى الله عليـــه وسلم • ويقال ان عمر رضى الله عنه حثا التراب على رأسه وقال : « ما يعبأ الله بعمر وابنته بعدها » • فنزل جبريل عليه السلام من الغد على النبى صلى الله عليـــه وسلم فقال : « ان الله يأمرك أن تراجع حفصة رحمة بعمر » • وفى رواية قوله : « راجع حفصة فانها صوامة قوامة ، وانها زوجتك فى الجنـــة » • وما نشك فى أن حفصة لامت نفسها لوما عنيفا على افشائها سر الرسول صلى الله عليـــه وسلم ، الذى استغل أسوأ استغلال ، وراحت تبكى ، فقد دخل عليهـــا أبوها فوجدها تتفطر من البكاء فقال لها : « ان طلقك مرة أخرى لا أكلمك أبدا »[1] •

فراجعها صلى الله عليـــه وسلم •

* * *

لكنه لا يزال معتزلا زوجاته ، يأوى الى خزانته ، وخادمه رباح واقف على الباب يمنع الدخول على رســـول الله صلى الله عليه وســـلم ، وعمر ـ رضى الله عنه ـ من أكثر الصحابة هما لأن ابنته كانت ســـببا فى الأحداث التى جرت ، فذهب الى رباح يطلب الاستئذان من رسول الله ـ صلى الله عليـــه وسلم ـ وقد رفع صوته قائلا :

---

(١) الاصابة جـ ٨ ص ٥٢ .

« يا رباح ، استأذن لى عندك على رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فانى أظنه ظن أنى جئت من أجل حفصة • والله لئن أمرنى بضرب عنقها لأضربن عنقها » •

وأذن لابن الخطاب رضى الله عنه فى الدخول ، وكان متأثرا لرسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فأجال بصره فى الخزانة وبكى •

لقد بكى من أجل الرسول صلى الله عليه وسلم ، الحصير الذى كان مضطجعا عليه قد أثر فى جنبه ، وقبضة الشعير ومثلها من قرظ كانتا كل ما بالخزانة من طعام •

ثم قال ابن الخطاب ــ رضى الله عنه ــ :
يا رسول الله •• ما يشق عليك من أمر النساء ؟ ان كنت طلقتهن فان الله معك وملائكته وجبريل وميكائيل وأنا وأبو بكر والمؤمنون معك •

وابتسم النبى صلى الله عليه وسلم وأخبره بأنه لم يطلقهن وانما هجرهن شهرا •

ونزل عمر رضى الله عنه فأخبر حشود المسلمين بأن النبى صلى الله عليه وسلم لم يطلق زوجاته • وجاء الرسول عليه الصلاة والسلام من بعده فتلا الآيات التى نزلت :

« يا أيها النبى لم تحرم ما أحل الله لك ، تبتغى مرضات أزواجك ، والله غفور رحيم • قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم ،

والله مولاكم ، وهو العليم الحكيم • واذ أسر النبى الى بعض أزواجه حديثا فلما نبأت به وأظهره الله عليه عرف بعضه وأعرض عن بعض ، فلما نبأها به قالت من أنبأك هــذا ، قال نبأنى العليم الخبير • ان تتوبا الى الله فقد صغت قلوبكما ، وان تظاهرا عليه فان الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين ، والملائكة بعد ذلك ظهير • عسى ربه ان طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا منكن مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات ثيبات وأبكارا »[1] •

* * *

وعت حفصــة رضى الله عنها هــذا الدرس ، فما تسببت أو اشتركت فيمــا يغضب زوجها الأمين ، وظلت تواظب على صيامها وقيامها الى أن لحق الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ بالرفيق الأعلى •

ثم اختيرت من بين أمهــات المؤمنين لتحفظ النســخة الخطية للمصحف فى بيتها ، وبقى عندها حتى طلبه أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه ، فنسخ منه النسخ الأربع ووزعها على الأمصار وأحرق ما عداها •

ولما كان الخلاف بين على ــ كرم الله وجهه ــ ومعاوية طلبت منهــا السيدة عائشة رضى الله عنهــا الخروج معها فى الجيش الذى يطالب بدم عثمان ، وعز عليهــا أن ترد طلب

---

(١) التحريم : ١ ــ ٥ ..

عائشـــة رضى الله عنها وتهيأت لمصاحبتها ، ولكن أخاها عبد الله حذرها من ذلك •

فعكفت على قيامها وصيامها تروى أحاديث رســـول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد روت عن النبى صلى الله عليه وسلم وعن عمر وعن أخيها عبد الله ـــ رضى الله عنهما ـــ وابنه حمزة وزوجته وغيرهم •

وظلت كذلك الى أن لبت نداء ربها ولحقت بالرفيق الأعلى ، رضى الله عنها ، سنة احدى وأربعين ـــ وقيل خمس وأربعين ـــ ودفنت بالبقيع بالمدينة •

* * *

السيدة زينب بنت خزيمة (رضى الله عنها)

هى زينب بنت خزيمة بن عبد الله بن عمر بن عبد مناف ، المؤمنة البارة الصالحة التقية المجاهدة فى سبيل الله ، كانت زوجة لعبيدة بن الحارث بن عبد المطلب ، البطل المقدام الذى جاهد وحارب فى سبيل الله لتكون كلمة الله هى العليا ، شهد بدرا ، وكان أحد المبارزين الثلاثة : على وحمزة وعبيدة .

يروى التاريخ أن مبارزة بدر بدأت بين على بن أبى طالب ـ كرم الله وجهه ـ والوليد بن عتبة من قريش ، وبين حمزة بن عبد المطلب عم النبى صلى الله عليه وسلم وشيبة ابن ربيعة عم الوليد ، فقتل على الوليد ، وقتل حمزة ـ رضى الله عنه ـ مبارزه شيبة بن ربيعة ، وبارز عبيدة عتبة بن ربيعة الا أنهما اختلفا بضربتين كلاهما أثبت صاحبه فرماه ، فكر على وحمزة ، بأسيافهما على عتبة فقتلاه .

واحتملا عبيدة الجريح الى النبى صلى الله عليه وسلم ، فوضع خده على ركبة النبى ، ثم رفع بصره الى

الرســول الأمــين لا ليســأله عن أهله وعشــيرته وانمــا ليقول له :

ألست شهيدا يا رسول الله ؟ فأجاب الرسول صلى الله عليه وسلم : « أشهد انك شــهيد » فلم يلبث أن لحق بالرفيق الأعلى •

* * *

كانت زينب ــ رضى الله عنها ــ حين استشهد زوجهــا تقوم بواجبها فى اسعاف الجرحى وتضميد جراحهم وسقيهم المــاء ، ولم يشغلها استشهاد زوجها عن القيام بواجبها حتــى كتب الله النصر للمؤمنــين فى أول معــركة خاضــوها مع المشركين •

وأراد النبى صــلى الله عليــه وســلم أن يكافئهــا على ما قدمت فى سبيل عقيدتها ودينها ، وأن يضمها الى زوجاتــه فيكون لها شرف أمومة المؤمنين ، فعقد عليها وتزوجها ، وكان هذا الزواج عقب زواج النبى صلى الله عليه وسلم من حفصة رضى الله عنها ، زوجه اياها عمها قبيصة بن عمــرو الهلالى ، وأصدقها رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعمائة درهم •

قالوا عنها : وقد تجــاوزت الثلاثين ، ولم تكــن ذات جمال ، وانما عرفت بطيبتها واحسانها ، فلقد كانت تعطف على

الفقراء والمساكين وتحسن اليهم ، فكانت تطعمهم وتتصدق عليهم حتى لقبت بأم المساكين .

عاشت مع الرسول صلى الله عليه وسلم شهورا ، ثم توفيت فى ربيع الثانى سنة أربع من الهجرة ، رحمها الله ورضى عنها .



السيدة أم سلمة (رضى الله عنها)

هى هنـــد بنت أبى أمية بن المغيرة بن عبـــد الله بن عمر ابن مخزوم القرشية المخزومية • يلقب أبوها بزاد الركب لأنه كان أحد الأجواد ، وكان اذا ســـافر يكفى رفقته من الزاد ولا يدع أحدا يرافقه ومعه زاد • وأمها عاتكة بنت عامر بن ربيعة • وكان جدها جذيمة بن علقمة يلقب بجذم الطعان •

تزوجت هند ـــ رضى الله عنها ـــ من عبد الله بن عبد الأسد الهلالى من بنى مخزوم ابن عمة النبى صلى الله عليه وســـلم برة بنت عبد المطلب ، وأخو النبى من الرضاعة فقد أرضعتهما ثويبة مولاة أبى لهب •

كانت هى وزوجها من السابقين فى الاسلام • ولمـــا اشتد بالمسلمين الأذى هاجرت مع زوجها الى الحبشة ، وعلى أرض افريقية ولدت ابنها سلمة فكانا يسكنان به ، وظلا معا فى الحبشة ، ثم فكر أبو سلمة فى الرجوع الى مكة ، وفيها وجد المشركين لا يزالون مستمرين فى ايذائهم للمسلمين ، فعزم على الهجرة الى المدينة واستعد للرحيل ، فأعد بعيرا وأركب زوجته وابنه سلمة وقاد البعير • ولكن ما كاد يتابع السير حتى هجم عليه رجال

من بنى المغيرة قوم أم سلمة قائلين : هذه نفسك غلبتنا عليها ، أرأيت صاحبتنا هــذه ، علام نتركك تسير بها فى البلاد ؟ •

وتعصب جماعة للزوج وجماعة للزوجة ، وانتهـى الأمر بأن أخــذ بنو المغيرة هندا ، وأخذ بنو أســد سلمة بعــد أن خلعوا يده من كثرة التجاذب •

أما أبو ســلمة ـــ رضى الله عنه ـــ فقد فر بدينه ليلحق بنبيه وأخيه وابن خاله •

وتكمل أم سلمة ـــ رضى الله عنها ـــ فتقول : وفرق بينى وبين زوجى وابنى ، فكنت أخرج كل غداة وأجلس بالأبطح ، فما أزال أبكى حتى أمسى ، سنة أو قربها •

حتى مر بى رجل من بنى عمى ، أحد بنى المغيرة ، فرأى ما بى ، فرحمنى فقال لبنى المغيرة :

ـــ ألا تخرجون هذه المســكينة ؟ فرقتم بينها وبين زوجها وبين ابنهــا •

وما زال بهم حتى قالوا :

ـــ الحقى بزوجك ان شئت •

ورد على بنو أســد عنــد ذلك ابنى ، فرحلت بعيرى ووضعت ابنى فى حجرى ، ثم خرجت أريد زوجى بالمدينة ، وما معى أحد من خلق الله •

حتى اذا كنت بالتنعيم — على فرسخين من مكة — لقيت عثمان بن طلحة فقال :

— أين يا بنت أبى أمية ؟

— أريد زوجى بالمدينة .

— هل معك أحد ؟

— لا والله الا الله وابنى هذا .

— والله مالك من مترك .

وأخذ بخطام البعير فانطلق معى يقودنى ، فوالله ما صبحت رجلا من العرب أراه أكرم منه : اذا نزل المنزل أناخ لى ثم تنحى الى شجرة فاضطجع تحتها ، فاذا دنا الرواح قام الى بعيرى فقدمه ورحله ، ثم استأخر عنى ، وقال : اركبى . فاذا ركبت واستويت على بعيرى أتى فأخذ بخطامه ، فقاده حتى ينزل بى ، فلم يزل يصنع ذلك حتى قدم بى المدينة ، فلما نظر الى قرية بنى عمر بن عوف بقباء — وكان بها منزل أبى سلمة فى مهاجره — قال : ان زوجك فى هذه القرية فادخليها على بركة الله ، ثم انصرف راجعا الى مكة .

❋ ❋ ❋

اطمأن أبو سلمة على زوجه وولده ، وتفرغ لدوره القيادى فى سبيل الجهاد ونشر الدعوة ، ولم يركن الى

الدعة والراحة ، بل كان فى مقدمة الصفوف يقاتل ويبلو البلاء الحسن .

شهد بدرا ، وكان أحد الثلاثمائة والأربعة عشر رجلا ، الذين تم بهم النصر وفضلوا على العالمين واستعمله النبى — صلى الله عليه وسلم — على المدينة حينما خرج فى غزوة ذى العشيرة فى جمادى الأولى من السنة الثانية .

وحضر موقعة أحد ، واستمات فى القتال ، وقاتل قتال المخلصين المستميتين فى طلب الاستشهاد حتى أصيب بجرح قاتل ، ولما عوفى من مرضه ، عقد له النبى — صلى الله عليه وسلم — لواء لقتال بنى أسد وذلك بعد شهرين من غزوة أحد ، فقد بلغ الرسول — صلى الله عليه وسلم — أن بنى أسد يجمعون الناس لمهاجمة محمد — صلى الله عليه وسلم — فى داره بالمدينة .

كان اللواء مائة وخمسين ، وكان فيهم من كبار الصحابة سعد بن أبى وقاص وأبو عبيدة بن الجراح .

قاد اللواء ، وهجم على المتربصين على غرة ، فأصاب منهم كثيرين ثم رجع الى المدينة سالما غانما ، فأعاد الى المسلمين بعض ما فقدوه من الهيبة فى أحد ، وفرح الرسول صلى الله عليه وسلم كثيرا . ولكن حدث ما لم يكن فى الحسبان ، فلقد كان التئام جرح أبى سلمة الذى أصيب به فى أحد

التئاما سطحيا ، ثم نغر وظل به يؤلمه ، ويتوجع منه الى أن حان وقت القضاء •

كان النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ بجواره ، وهو على فراش موته ، يدعو له ، ويداوم على زيارته حتى جاء وقت الاحتضار فأقبل الرسول الأمين ــ صلى الله عليه وسلم ــ يسبل عينيه ويكبر حتى لقى أبو سلمة ربه •

* * *

خلا البيت من أبى سلمة ، وما نسى المسلمون فضله ، فلما انقضت عدة أم سلمة أسرع كبار الصحابة ليكرموا أبو سلمة فى شخص أم سلمة رضى الله عنها ، فتقدم اليها أبو بكر الصديق رضى الله عنه خاطبا فرفضت ، وتلاه عمر بن الخطاب رضى الله عنه فاعتذرت فى رفق •

وبعث الرسول الأمين ــ صلى الله عليه وسلم ــ من يخطبها له ، فأرسلت تعتذر وتقول :

اننى غيرى مسنة ذات عيال وليس أحد من أوليائى حاضرا • فأرسل لها النبى صلى الله عليه وسلم من يقول لها : أما الغيرة فيذهبها الله عنك ، وأما انك مسنة فأنا أكبر منك وستكفين صبيانك ، وليس أحد من أوليائك يكره ذلك ، فقالت لابنها : قم فزوج رسول الله ، فزوجه • فقال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : « أما انى لم أنقص مما أعطيت فلانة » •

روى ثابت أنه قال لابن أم سلمة : ما أعطى فلانة ؟ قال : أعطاها جرتين تضع فيهما حاجتها ورحى ووسادة من أدم حشوها ليف •

* * *

انتقلت أم سلمة ـ رضى الله عنها ـ الى بيت النبى صلى الله عليه وسلم ، واثقة من نفسها ، متخذة لها مكانة سامية ، فلقد شرفت بالزواج من الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومن حقها أن تدافع عن نفسها ان شاءت ، وأن توقف من يريد أن يتدخل بين النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وزوجاته عند حده •

ولعل أول من قابلها من زوجات الرسول صلى الله عليه وسلم غيرة عائشة الصغيرة الجميلة ، تقول عائشة رضى الله عنها :

« لما تزوج رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أم سلمة ، حزنت حزنا شديدا ، لما ذكر لنا من جمالها ، فتلطفت حتى رأيتها ، فرأيت والله أضعاف ما وصفت به ، فذكرت ذلك لحفصة فقالت : ما هى كما يقال ، وذكرت سنها ••

« فرأيتها بعد ذلك فكانت كما قالت حفصة ، ولكنى كنت غيرى » ! •

ولعل أقارب أم سلمة رأوا اهتمام الرسول صلى الله عليه وسلم وحبه لها ، فأحبوا أن تتفرغ له ، وهذا ما دعا عمار بن

ياسر ، أخو أم سـلمة من الرضاعة ، أن يأخذ زينب ابنتها قائلا لها : دعيها فقد آذيت بها رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ ولكن محمدا ــ صلى الله عليه وسلم ــ أبا الانسانية كثيرا ما كان يسأل أم سلمة عن أطفالها وبخاصة زينب ، فيقول عليه الصلاة والسلام : « أين زناب ؟ » •

روى أن الرسول صلى الله عليـه وسلم انصرف بعـد زواجه ، ثم أقبل بابنها ، فلما رأته وضعته فى حجرها فلما رآها انصرف ، وأقبل رسول الله ــ صلى الله عليـه وسلم ــ بابنتها فوضعتها فى حجرها ، وأقبل عمار مسرعا بين يدى رسـول الله ــ صلى الله عليـه وسلم ــ فانتزعها من حجرها وقال : هاتى هـذه المشقوحة(١) التى منعت رسول الله ــ صلى الله عليه وسـلم ــ حاجته • فجاء رسـول الله ــ صلى الله عليـه وسلم ــ فلم يرها فى حجرها قال : أين زناب ؟ قالت : أخذها عمار ــ فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على أهله •

وزينب هذه ، التى كان يدللها أبو الانسانية ، شبت فى رعاية النبى ، فكانت ــ كما قالوا ــ من أفقه نسـاء أهل زمانها • ويروى أنها دخلت على النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ وهو يغتسل فنضح فى وجهها ، فلم يزل ماء الشـباب فى وجهها حتى كبرت وعجزت •

---

(١) الزاهية .

ولعل من الوفاء لأبى سلمة أن اختار النبى سلمة زوجا لابنة عمه سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنه •

وبلغ من اعتزاز أم سلمة رضى الله عنها بنفسها ، كزوجة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، أن أنكرت على عمر رضى الله عنه ، حينما تكلم فى مراجعة أمهات المؤمنين للرسول صلى الله عليه وسلم ، فقالت :

« عجبا لك يا ابن الخطاب ، قد دخلت فى كل شىء حتى تبتغى أن تدخل بين رسول الله وأزواجه » •

وفى بيتها كان ينزل الوحى ، وربما كانت عائشة ــ رضى الله عنها ــ تفخر بذلك ، فقد نزل قوله تعالى :

« إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا »(1) •

وقوله تعالى :

« وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا عسى الله أن يتوب عليهم ، ان الله غفور رحيم »(2) •

وقد نزلت هذه الآية فى أبى لبانة بن عبد المنذر الذى خالف أمرا لرسول الله ، ثم ندم وربط نفسه بسارية المسجد ، وقال : « لا أبرح مكانى هذا حتى يتوب الله على مما صنعت » •

---

(1) الأحزاب : ٣٣ •   (2) التوبة : ١٠٢ •

ونزلت آية توبة أبى لبانة والنبى صلى الله عليه وسلم ــ فى بيت أم سلمة ــ رضى الله عنها ــ فقالت : « وقد سمعته يضحك » فسألت رسول الله صلى الله عليه وسلم : مم تضحك يا رسول الله ، أضحك الله سنك ؟

قال : تيب على أبى لبانة .

قالت : أفلا أبشره يا رسول الله ؟

فقال : بلى ان شئت .

فقامت على باب حجرتها قائلة : يا أبا لبانة أبشر ، فقد تاب الله عليك .

* * *

كانت تشير على النبى صلى الله عليه وسلم بالرأى ، فيأخذ به ، وربما كان رأيا صائبا ، ولا ننسى موقفها فى الحديبية ، وقد تمت الاتفاقية بين الرسول صلى الله عليه وسلم وأهل مكة ، وكان لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم موقف فيه شىء من المغالاة ، فقد استاءوا من الكيفية التى تم بها صلح الحديبية والعقد الذى وافق الرسول صلى الله عليه وسلم عليه مع المشركين ، وكان مما فيه أن يرجع المسلمون الى المدينة هذا العام دون أن يدخلوا مكة معتمرين وهم على أبوابها ، وأن تكون بين الفريقين المسلمين ، وأهل مكة المشركين

هدنة عشر سنوات من غير قتال ، وأن يرد الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ من يجيء مسلما الى مكة ولا يرد أهل مكة من جاءهم مرتدا عن الاسلام •

وغاب عن المسلمين بعد نظر القائد الأعظم ــ صلى الله عليه وسلم ــ فيما ذهب اليه ، فمحمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ الخارج وحده ليلا من بلده يعود بعد سنوات فتفاوضه مكة ، والمفاوضة دليل ضعفهم وشروطها قوة للمسلمين اذا ناقشها الناقدون ، فلقد فوت الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ على الكفار اراقة الدماء ، وكان عليه الصلاة والسلام يكره الحرب ، فليرجع هذا العام من غير عمرة وليأت العام القادم معتمرا ، ولتكن هدنة وأهل مكة لا يوفون بعهد وسينقضونها قريبا ، وفعلا قد نقضوا العهد واعتدوا على حلفاء المسلمين • أما أن يرد النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ من جاءه من أهل مكة مسلما فاذا رده الى أهله بمكة ، وكان صادق الايمان ، فانه سيكون داعية للاسلام فى قلب مكة ومبعوثا لنشر الدين ، ومن فر من المدينة مرتدا فلا خير فيه • على أنه لم يثبت أن ارتد مسلم عن دينه وذهب الى مكة ، ولكن ذلك غاب عن الصحابة فغضبوا ، ولم يرضوا عن هذه الشروط ، ومضى عمر رضى الله عنه الى رسول الله فسأله :

ألست برسول الله ؟

أولسنا بالمسلمين ؟

أوليسوا بالمشركين ؟

والرسول يجيب ببلى •

ثم قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : فعــلام نعطى الدنيــة فى ديننا !

فأجابه النبى صلى الله عليه وسلم : « أنا عبد الله ورسوله ، ولن أخالف أمره ، ولن يضيعنى » •

ثم أمر الرسول ــ صلى الله عليــه وسلم ــ أصحابه أن يقوموا ، فينحــروا ثم يحلقوا ــ وكررها ثلاثا ــ فتكاسلوا وتباطأوا • فدخل على أم سلمة رضى الله عنها حزينا ، ثم ذكر لها ما لقى من الناس فقالت :

« يا نبى الله •• أتحب ذلك ؟ اخرج ثم لا تكلم أحدا منهم كلمة ، حتى تنحر بدنتك وتدعو حالقك فيحلقك » •

وعمل الرسول الأمين ــ صلى الله عليه وسلم ــ بما أشارت ، فلما رأوا قاموا فنحروا ، وجعل بعضهم يحلق بعضا حتى كاد بعضهم يقتل بعضا غما وكمداً وندما •

ثم أدرك المســلمون ما غاب عنهم من حكمة هــذا الصلح ، فقد دخل بعد هــذا الصلح أناس كثيرون لا يحصى عددهم ،

وصحبت أم سلمة ــ رضى الله عنها ــ الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ فى غزوة خيبر وفى فتح مكة ثم فى حصار الطائف وغزوة هوازن وثقيف .

***

وعندما عادت الى المدينة اشتركت فى مظاهرة الزوجات ضد مارية رضى الله عنها فانتهت باعتزال النبى صلى الله عليه وسلم شهرا ، ثم رضى النبى صلى الله عليه وسلم عنهن فعاد اليهن الهدوء والطمأنينة ، وتفرغن لما يرضى الله ورسوله ، وظللن كذلك الى أن نزل به صلى الله عليه وسلم المرض ، وأذنت أم سلمة رضى الله عنها وكذلك سائر أزواجه أن يتمرض الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم فى بيت بنت حبيبه أبى بكر ــ رضى الله عنهما ــ لمصلحة هذه الدعوة المباركة وقد كان .

ثم لحق النبى صلى الله عليه وسلم بالرفيق الأعلى ، وأرادت أم سلمة رضى الله عنها أن تتجنب الاشتراك بأى صفة من الصفات فى الخلافات ، الا أنها لا شعوريا وجدت نفسها تؤازر ابن عم رسول الله على بن أبى طالب ــ كرم الله وجهه ــ وقدمت اليه ابنها قائلة :

« يا أمير المؤمنين ، لولا أن أعصى الله عز وجل وأنت لا تقبله منى لخرجت معك ، وهذا ابنى عمر ، والله لهو أعز على من نفسى ، يخرج معك فيشهد مشاهدك » .

وتقدمت السنون بأم سلمة — رضى الله عنها — وفتن الأمويين تجتاح البلاد ، حتى وصلت المدينة واختارها الله لجواره ، فكانت آخر من مات من نساء النبى — صلى الله عليه وسلم — وهى ابنة أربع وثمانين سنة رضى الله عنها ، وصلى عليها أبو هريرة صاحب رسول الله وراوى أحاديثه ، ودفنت بالبقيع سنة ثلاث وستين من الهجرة .

* * *

السيدة ميمونة بنت الحارث الهلالية

(رضى الله عنها)

كان اسمها « برة » احدى الأخوات الأربع اللائى وصفهن النبى صلى الله عليه وسلم بالايمان فقال فيهن : « الأخوات المؤمنات » .

شقيقتها الأولى هى أم الفضـــل « لبانة » الكبرى بنت الحارث زوج العباس بن عبد المطلب ، وقد أسلمت بعد خديجة رضى الله عنها ، وأختان من أمها « سلمى بنت عمس » زوجة حمزة بن أبى طالب رضى الله عنه ، و « أسماء بنت عميس » زوجة جعفر بن أبى طالب .

من بيت يميل الى الزواج منه سادة القوم ، والبيت الذى يميل اليه الســـادة تمتاز المرأة فيه بالذكاء والشجاعة والارادة القوية والثقة والمحافظة ، ولا ينسى التاريخ موقف أخت برة أم الفضل ، فلقد دخل أبو لهب بيت أخيه العباس ، واحتمل مولاه « أبا رافع » فضرب به الأرض ، ثم برك عليه يضربه لأنه أسلم ، فعمدت أم الفضل رضى الله عنها الى عمود قريب

فأهوت به على رأس أبى لهب ، فشجته شجة منكرة ، وهى تقول : « استضعفته أن غاب عنك سيده » ، فقام موليا ذليلا ، فما عاش الا بضع ليال حتى رماه الله بداء قتله •

تزوجت « برة » من أبى رقم بن رهم بن عبد العزى ، ثم مات وتركها أرملة ، وظلت فى بيتهـا الى أن قرب مرور عام على صلح الحديبية ، واستعد الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه للعودة الى مكة ــ تنفيذا لشرط أخذ على محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ ليقيم بها ثلاثة أيام ، وقد خففوا من أسلحتهم ووضعت السيوف فى أغمادها •

واستعد الرسول صلى الله عليه وسلم وصحبه لدخول مكة فرحين مستبشرين تتقدمهم القصواء ، وقد أخذ عبد الله بن رواحة بخطامها يحدو بصوته الجميل :

خلوا بنى الكفار عن سبيله
خلوا فكل الخير فى رسوله

يا رب انى مؤمن بقيله
أعرف حق الله فى قبوله

وأصوات الملبين ترتفع الى عنان السماء ، فتمتزج بالدعاء والتكبير والهتاف والتسبيح ، مرددين صدق ما وعد الله به وأن النصر العظيم سيأتى عما قريب :

« لا اله الا الله وحـــده ، صدق وعده ، ونصر عبـــده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده » •

مشـــهد مهيب لم تره مكة من قبل ، ارتفعت فيه راية الاسلام ، وكادت الأرض أن تميد بالمعاندين والمشركين •

والحبيب محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ موزع بين التكبير والشـــكر والحمد والدعاء ، فهل فى قلبه مكان للتفكير فى زواج ؟ ! انه يفكر فيما هو أكبر وأعظم •

ولكن المقادير التى تحصى كل شىء ، كل صغيرة وكبيرة ، كانت ترقب قلبا صـــغيرا يشارك المسلمين فرحتهم وانتصارهم ، ثم يرجع فيتساءل : ما على محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ لو تزوج « برة » ؟ وهل يرضى ؟ وهل فى قلبه موضع للتفكير الآن ؟ ثم ترجع الى نفسها صامتة •

هذا القلب كان قلب « برة » ــ رضى الله عنها ــ لقـــد جمعت كل شجاعتها واقتربت من الرسول الأمين ــ صلى الله عليه وسلم ــ ولم تقل اننى أريد الزواج منك يا رسول الله ، وانما قالت له : « لقد وهبت نفسى لك » وكأن النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ تردد ، فالمقام ليس مقام القبـــول الآن ، فاذا بالسماء ترد وتحسم الأمر ، وتطلب من محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ أن يقبل الهبة :

« وامرأة مؤمنة ان وهبت نفسها للنبى ان أراد النبى أن يستنكحها خالصة لك من دون المؤمنين »[1] .

واستجاب النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ وكانت فرحة النبى لموافقة ربه سبحانه وتعالى أكبر من كل فرحة ، ولكن الوقت الذى ضربته قريش ووافق عليه محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ قد قارب على النهاية .

فأتاه حويطب بن عبد العزى فى نفر من قريش فى اليوم الثالث ، فقالوا له « انه قد انقضى أجلك فاخرج عنا » .

فقال لهم الرسول الوفى المسالم ــ صلى الله عليه وسلم ــ : « ما عليكم لو تركتمونى فأعرست بين أظهركم فصنعت لكم طعاما فحضرتموه » .

ولكنهم أجابوا حاقدين حاسدين : « لا حاجة لنا فى طعامك فاخرج عنا » .

فنزل النبى الأمين ــ صلى الله عليه وسلم ــ على ارادتهم ، وأذن فى المسلمين بالرحيل ، وقد ترك مولاه أبا رافع بمكة ، ليلحق به فى صحبة « برة » .

وفى « سرف » تولى العقد عنها العباس عم النبى صلى

---

(١) الأحزاب : ٥٠ .

الله عليه وسلم ، فلقد كان يتولى أمرها ، وبنى بها الرسول هناك ، وسماها ميمونة ، ثم انصرف بها راجعا الى المدينة •

***

عاشت مع زوجات النبى صلى الله عليه وسلم ، شـاكرة الله على ما أولاها من نعمة الاسـلام ، وعلى أن شرفها بالزواج من رسـوله •

أسهمت فى الجهاد فى سـبيل الله ، فألفت فرقة نسـائية للاسعاف والقيام بالواجب نحـو الجرحى والمصابين ، ولقد أصيبت فى أثنـاء أدائها لواجبها فى الميدان بسـهم من سـهام الأعداء وهى تحمل الماء للمصابين فكاد يقتلها لولا عناية الله ولطفـه •

وفى غزوة تبوك أبدت نشاطا كبيرا مع المجاهدين : تسعف الجرحى ، وتواسى المرضى ، وتجاهد فى سبيل الله حق جهاده •

وبجانب هـذا كله كانت — رضى الله عنها — زاهدة عابدة كثيرة الحب والاخلاص للرسول صلى الله عليه وسلم •

كان صلى الله عليه وسلم فى بيتها حينما اشـتد به الألم فى مرضه الأخير ، وعرفت رغبة النبى فى أن ينتقل الى بيت عائشة — رضى الله عنها — فرضيت أن ينتقل حيث يحب •

ولمـا انتقل صلى الله عليه وسـلم الى الرفيق الأعلى عاشت فى ذكرى حياتها مع الرسـول صلى الله عليه وسلم ،

وتذكر اليـوم الميمون الذى جمعها بالرسول عليه الصـلاة والسلام •

كان بيتها مصدر اشعاع للمسلمين ، فقد حدثت عن رسول الله صلى الله عليـه وسلم وروت عنه سـتة وسبعين حديثا ، وروى عنها ابن أختها عبد الله بن العباس وابن أختها يزيد بن شـداد ، وعبـد الرحمن السائب ، ومولاتها ندبة ، ومولاها عطاء وغيرهم •

توفيت ــ رضى الله عنها ــ بعـد منتصف القرن الأول للهجـرة ، وقدر الله أن يكون موت ميمونة بنت الحارث رضى الله عنها حيث بنى بها رسول الله صلى الله عليه وسـلم فحقق لها ما كانت تتمناه •

ويكفينا فى هـذا المقام ما رواه يزيد بن الأصـم قال : « تلقيت عائشة ــ رضى الله عنها ــ من مكة ، أنا وابن لطلحة من أختها ، وقد كنا وقفنا على حائط من حيطان المدينة فأصبنا منه •• فأقبلت عائشة على ابن أختها تلومه ، ثم أقبلت على فوعظتنى موعظة بليغة • ثم قالت : أما علمت أن الله ساقك حتى جعلك فى بيت ميمونة بيت من بيوت نبيه ؟ ذهبت والله ميمونة ورمى بحبلك على غاربك • أما وانهـا كانت والله من أتقانا لله وأوصلنا للرحم » •

رحمها الله ورضى عنها •

***

السيدة أم حبيبة (رضى الله عنها)

رملة بنت أبى سفيان صخر بن حرب القرشى الأموى زعيم مكة وقائد المشركين • أمها صفية بنت العاص وأخت معاوية بن أبى سفيان • تزوجها عبيد الله بن جحش الأسدى ابن عمة رسول الله وأخو زينب بنت جحش أم المؤمنين رضى الله عنها •

وحينما أسلم عبيد الله بمكة أسلمت معه رملة — رضى الله عنها — ولما عزم زوجها على الهجرة الى الحبشة فرت بدينها معه رغم ثقلها بمن فى بطنها ، الا أنها خافت الفتنة وبطش الأب الذى جن جنونه لاتباعها ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم •

أمنت رملة — رضى الله عنها — على دينها وعبادة ربها ، ثم وضعت طفلتها « حبيبة » بنت عبيد الله التى تكنت بها فكانت تنادى « أم حبيبة » •

***

ولكن عبيد الله ارتد عن دينه الذى خرج من أجله وترك بلده وأهله وأغراه شرب الخمر ، فأغرق فيه ، وحاول أن يجر

رملة ـ رضى الله عنها ـ معه الى النصرانيــة ، ولكنها أبت راضية بعقيدتها الدينية واسلامها صابرة على قضـاء الله .

فهل تفكر فى الرجوع الى مكة ؟ كلا .. فما زال أبو سفيان يؤذى النبى صلى الله عليــه وسلم ومن معه ، ورجوعها ربمــا يكلفها الكثير فلتصبر ولتتمسك بعقيدتها ولتبق فى أرض الحبشة مخلصة حتى يأتى وعد الله .

* * *

وجاءت الأنباء الى المدينة تحمل أخبار أم حبيبة رضى الله عنها وموقفها من زوجها وثباتها على الحق ، ثم موته على ردته ونصرانيته وبقـائها وحيــدة شريدة غريبــة لا تدرى ماذا تصــنع تاركة أمرها الى الله ، وتحركت الأريحية المحمــدية لتأسو جراحها وتخفف من آلامهــا وتكافئها مكافأة لم تخطر لهـا على بال .

ولندع أم حبيبة رضى الله عنها تروى قصتها فتقول :

« ما شعرت وأنا بأرض الحبشة الا برسول النجاشى ، جارية يقال لها أبرهة كانت تقوم على ثيابه ودهنه ، فاستأذنت على فأذنت لها ، فقالت ، ان الملك يقول لك : ان رســول الله صلى الله عليه وســلم كتب الى أن أزوجكه ، فقلت : بشرك الله بالخير ..

« وقالت : يقول لك الملك : وكلى من يزوجك ـ فأرسلت الى خالد بن سعيد بن العاص رضى الله عنــه فوكلته ، وأعطيت

أبرهة سوارين من فضة وخدمتين(١) من فضة كانتا على وخواتيم من فضة فى كل أصابع رجلى سرورا بما بشرتنى به ..

« فلما أن كان من العشى أمر النجاشى جعفر بن أبى طالب رضى الله عنه ومن كان هناك من المسلمين أن يحضروا ، وخطب النجاشى وقال : الحمد لله الملك القدوس المؤمن العزيز الجبار ، وأشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا عبده ورسوله ، وأنه الذى بشر به عيسى بن مريم .

« أما بعد .. فان رسول الله صلى الله عليه وسلم طلب أن أزوجه أم حبيبة بنت أبى سفيان ، فأجبت الى ما دعا اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد أصدقها أربعمائة دينار » . ثم سكب الدنانير بين يدى القوم .

فتكلم خالد بن سعيد فقال :

« الحمد لله أحمده وأستغفره ، وأشهد أن لا اله الا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ..

« أما بعد .. فقد أجبت الى ما دعا اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وزوجته أم حبيبة بنت أبى سفيان ، فبارك الله لرسول الله صلى الله عليه وسلم . ودفع النجاشى الدنانير الى خالد بن سعيد فقبضها ، ثم أرادوا أن يقوموا فقال :

---

(١) خلخالين .

اجلســوا فان من ســنة الأنبياء اذا تزوجوا أن يؤكل طعام على التزويج ، فدعا بطعام فأكلوا ثم تفرقوا » .

* * *

لفتة كريمة من رســول الانسانية توج بهــا مســلمة هجرت كل شيء ، الموطن والأب ، والنسب والشرف الجاهلى ، والزوج فى ســبيل عقيدتها ومبدأها ، ثم ما كان يضير الرسول لو زوجها لرجل من المهاجرين معهــا فى الحبشة أو طلب ارسالها اليه ، لكنه أرسل الى النجاشى أن يتولى العقد عليهــا حتى يبعث اليهــا الأمن والطمأنينة ويكافئها فيجعلهــا زوجا له وأما للمؤمنين .

لقد أكرمها النجاشى ، ولطف بها ، وأحسن اليها وأصدقها عن النبى صلى الله عليــه وسلم أربعمائة دينــار مع هدايا نفيسة وسفرها مع شرحبيل بن حسنة معززة مكرمة .

عادت الى المدينة ، واحتفلت دار الهجرة ببنت أبى سفيان ، وأولم عثمــان بن عفان ، ونحرت الذبائح وعمت الفــرحة المســلمين .

***

خفف هــذا الزواج من عــداوة بنى أميــة ، وسرت الهمسات بين أهل مكة ، وما كان لأبى ســفيان وقد تزوج ابنته محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ الا أن يقول حينما بلغه النبأ :

« هــذا الفحل لا يجدع أنفه » فلم ينكر على النبى صلى الله عليه وسلم قوته وشجاعته وقيادته .

ثم نقضت قريش العهد الذى اصطلحوا عليه فى الحديبية ، وبلغهم غضب محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ الشــديد لما قاموا به ، واستولى عليهم الرعب والفزع ، وما عاد يستهان بقوة محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ وسلطانه ، واجتمعوا فى دار الندوة وتشاوروا فى الأمر ، واستقر رأيهم على أن يوفدوا رسولا للتفاوض مع النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ فى مد أجل الهدنة عشر ســنوات ، واختاروا أبا سفيان والد أم حبيبة وزعيم القوم ، فأتى المدينــة مكرها ، وما كان له أن يخالف قومه ، وخف الى بيت ابنته التى فوجئت به ، والذى لم تره منــذ هاجرت الى الحبشــة ، فقابلته بادية الحيرة والدهشة ، لا تدرى ماذا تفعل أو تقول .

ولكن أبا سفيان قطع عليهــا بجلوسه ما تعانيه ، فلما حاول الجلوس على فراش رســول الله صلى الله عليــه وسلم ، أسرعت فاختطفته وطوته فقال الأب لابنته : « أطويته يا بنية رغبة بى عن الفراش ، أم رغبة بالفراش عنى ؟ ! » .

فأجابته رضى الله عنها : « هو فراش رسول الله صــلى الله عليه وسلم وأنت رجل مشرك فلم أحب أن تجلس عليه » .

فانصرف مغضبا وهو يقــول : « لقد أصابك يا بنيــة بعدى شر » .

فقالت : « لا والله بل خير » •

لقد ظهر ايثارها الواضح لزوجها وايمانها وعقيدتها هذا الايثار الذى لم تبد فيه ولو كلمة مجاملة لأبيها ، فلم تشغل بالها بأمره ولم تهتم به ، ثم انصرف أبو سفيان ولم يرد عليه أحد بشىء حتى الرسول صلى الله عليه وسلم •

ناصبت قومها العـداء ، وتبرأت من عملهم وعقيدتهم ، الا أنها كانت تنتظر آملة أن يرجعوا عن غيهم فيدخلوا فى حظيرة الاسـلام ، حتى يمكن أن يتصل الحبل الذى يجمعهم على الهدى والرشاد ويضم شملهم على الحب والمودة فى الدنيا والآخـرة •

وتمر الأحداث سريعا ، ويجمع الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ جيشا جرارا قوامه عشرة آلاف مسلم ، وتتحقق المعجزة ، فمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ الذى خرج وحـده مطاردا من بلده ، يعود اليها وقد ثبتت العقيدة ، وقوى الايمان • ووقفت أم حبيبة رضى الله عنها تدعو للمسلمين وللرسول بالنصر على دولة الكفر والطغيان ، وتتمنى أن ترى أهلها مؤمنين بما جاء به رسول الانسـانية •

وراحت تنتظر أخبـار الفتح ، وموقف أبى سـفيان ، وما كان أشـد فرحتها حينما نقلت اليها الأخبار عفو الرسـول

صلى الله عليـــه وسلم عن أبيهـــا ، ثم ما أضــفاه على بيته من أمن وطمأنينة •

« •• من دخل دار أبى ســفيان فهو آمن ، ومن أغلق بابه فهو آمن ، ومن دخل المســجد الحرام فهو آمن » •

شرف عظيم لا يناله الا المؤمنون ، ومما لا شك فيه أن بيت أبيها قد دخله نور الاســلام •

حمدت الله وشــكرته وأثنت على الرســول ـــ صلى الله عليه وســلم ـــ بما هو أهله ، فهو الــكريم الحليم ، الصابر المحتسب ، الذى عفا عن قومهـــا ، فوصل ما انقطع وأصلح ما أفسده العتو والطغيان ، واطمأن قلبها الى أنها فى الجنــة ســتكون مع الرســول صلى الله عليه وســلم ثم مع أبيهـــا وأمها وأهلهـــا •

ظلت فى بيت النبوة ، ســعيدة فى كنف الرســول صلى الله عليـــه وسلم ، محل احترام من زوجات الرسول ، لما امتازت به من رجاحة العقل ، وحسن التصرف ، والبعد عن الهــوى ، وشــكر الرسول على ما قدم لها ، وعبادة الله والتقرب اليـــه الى أن تقدمت بهـــا الســـنون ، وجاء وقت الرحيــل وترك الدنيـــا الفانية ، فأحبت أن تتخلص مما قـــد يظن فيـــه شىء من العقـــاب • •

فدعت اليها عائشـــة رضى الله عنها وقالت :

« قد يكون بيننا ما يكون بين الضرائر ، فغفر الله لى ولك ما كان من ذلك » •

فاستغفرت لهـــا ، وعفت عمـــا ســـلف وهمست قائلة : « سررتنى سرك الله » وفعلت مثل ذلك مع أم ســـلمة بنت أمية رضى الله عنها •

فهدأت نفســـها ، وصفت سريرتها ، واســـتعدت للقـــاء الله راضية مرضية •

فرحت بلقاء الرســـول ـــ صلى الله عليـــه وسلم ـــ فى الآخرة وفاضت روحها الطاهرة ، وسجى جســـدها فى ثرى البقيع بالمدينة على مقربة من المسجد النبوى سنة أربع وأربعين من الهجرة فى خلافة أخيها معاوية رضى الله عنهما •

* * *

السـيدة زينب بنت جحش (رضى الله عنها)

لا يتدخل القـرآن الكـريم فى أمر الا اذا كان بالغ الأهمية ، والقـرآن كان أكثر تدخلا فى زواج زينب بنت جحش رضى الله عنهـا ، وربما كانت أكثر الزيجات التى تعرض لهـا القـرآن لخطورتها البـالغة ، وما صـادفها من ظـروف خاصة . وما أثارت من شبهة وخلاف قضى عليهما الوحى المنزل .

ولما كان زيد بن حارثة بطلا من أبطال هـذا الزواج وعنصرا أساسيا فيه ، فسـوف نتناوله بشىء من التفصيل .

كان زيد بن حارثة هـذا عبداً لحكيم بن حزام ابن أخى خديجة زوج محمد صلى الله عليه وسلم ، أخذته خديجة رضى الله عنها من ابن أخيها ووهبته لمحمد .

وتعلق زيد بسيده حتى أنه أبى أن يذهب مع أبيه حارثة ، وفضل أن يكون عبداً لمحمد ــ صلى الله عليـه وسلم ــ على أبيه وأمه . فأخذ محمد ــ صلى الله عليـه وسلم ــ بيده وأشهد القوم فى مكة على أن زيدا هـذا ابنه بالتبنى وصار ينادى زيد بن محمد .

ولما جاء الاســلام أسلم زيد بعد على بن أبى طالب ، كرم الله وجهه وهاجر الى المدينــة وآخى الرســول صلى الله عليه وسلم بينه وبين عمه حمزة رضى الله عنه ، ثم اختار له الرسول صلى الله عليــه وسلم زينب بنت جحش ابنة عمته أميمة بنت عبد المطلب ، وكانت جميلة معتزة بنسبها ، قالوا : كانت بيضاء سمينة من أتم نســاء قريش •

وقد صارت زوجة لزيد استجابة لرســول الله صلى الله عليــه وسلم وتنفيذا لمــا جاء به القرآن الكريم ، فقد نزل فيها قول الله تعالى :

« وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ، ومن يعص الله ورسوله فقد ضــل ضلالا مبينا » (١)

الا أنها كرهت هذا الزواج ، وحاولت أن تضغط علىقلبها ليميل الى زيد فلم تطاوعها نفســها ، ولم تستسغ معاشرته والحياة معه للفارق الكبير ، فواجبها أن تحترمه وتقدره كمسلم وليس فى استطاعتها أن تتقبله ولا أن تعاشره ، لكنها بقبولهــا حطمت مبدأ العصبية القبلية والشرف الجاهلى ، فقد جعــل الاسلام الشرف فى الدين والتقوى • أما سوء العشرة بين زينب ــ رضى الله عنها ــ وزيد فمرده الى الاختلاف الاجتماعي ،

---

(١) الأحزاب : ٣٦ •

وهذا ما أوصى التشريع الاسلامي بملاحظته عند الزواج ؛ ولحكمة ما زوجها النبى صلى الله عليه وسلم وأصبحت الحياة بينهما شبه مستحيلة ، وليس أمامهما الا الفراق .

لقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم يريد أن يدوم هذا الزواج ، فكثيرا ما شكا اليه زيد سوء معاملة زينب له ، والرسول صلى الله عليه وسلم يطلب اليه مزيدا من الاحتمال ويأمره أن يمسك عليه زوجته .

كان الرسول صلى الله عليه وسلم يعرف زينب ــ رضى الله عنها ــ جيدا من صغرها ، فقد نشأت معه فهى ابنة عمته ، وقد زوجها ابنه بالتبنى . ولو أراد أن يزوجها لغير زيد لزوجها ولكن حياة الرسول مع التشريع ، وان كان الله سبحانه وتعالى يقول فى حقه عليه الصلاة والسلام :

« وما ينطق عن الهوى . ان هو الا وحى يوحى » (١) .

فهل كانت فعاله الا كذلك ؟ حقا ان أعمال الرسول والنبى محمد صلى الله عليه وسلم لكذلك ، فلم يكن عليه الصلاة والسلام حرا طليقا بل كان مرتبطا برب السماء والارتباط برب السماء يوجب الخضوع والسير فيما يأمر به .

لقد صمم زيد على طلاق زينب رضى الله عنها ، فقال له النبى صلى الله عليه وسلم :

---

(١) النجم : ٣ ، ٤ .

« أمسك عليك زوجك واتق الله »(1) •

ولكن زينب رضى الله عنها هجرته ولم يكن هناك من مخرج الا بالطلاق ، لقد أنهى زيد ما بينه وبين زينب •

فهل أشفق الرسول صلى الله عليه وسلم عليهـا لأنه أكرهها على الزواج ، فأراد أن يطيب خاطرها بزواج موفق ؟ وهل له أن يتزوجها ؟ وكيف يكون ذلك وقد أعلن من قبل أن زيدا ابنه ؟ وكيف يواجه الناس ؟ بل وكيف يتركها تقاسى متاعب الحيـاة وحدها ؟

نعتقد أن مثل هـذا دار بخلد النبى صلى الله عليه وسلم اذ صدقته الأحداث التى حصلت بعد •

وكأن الوحى قد قطع عليه ما يجول بخاطره ، ليضعه أمام تشريع جديد يلغى فيه التبنى ، ويؤكد ذلك عمليا فيلحقه بأبيه الذى أنجبه •

فقد روى أن النبى صلى الله عليـه وسلم كان يتحدث بجواز زواج زوجة الابن المتبنى وبالغاء نسب المتبنى مع عائشة اذ أخذته غشية الوحى ، ثم سرى عنه وهو يبتسم ويقول :

« من يذهب الى زينب يبشرها بأن الله زوجنيها » •

ثم تلا ما نزل عليه من الوحى :

---

(1) الأحزاب : ٣٧ •

« واذ تقول للذى أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفى فى نفسك ما الله مبديه وتخشى النـــاس والله أحق أن تخشاه ، فلما قضى زيد منهـــا وطرا زوجناكها لكى لا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم اذا قضوا منهن وطرا ، وكان أمر الله مفعولا »[1] .

وتلا قوله تعالى فى الغاء التبنى ، فصار يدعى زيد بن حارثة بدل زيد بن محمد **« وما جعل أدعياءكم أبناءكم ، ذلكم قولكم بأفواهكم ، والله يقول الحق وهو يهدى السبيل . ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله ، فان لم تعلموا آباءهم فاخوانكم فى الدين ومواليكم ، وليس عليـــكم جناح فيمـــا أخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم ، وكان الله غفورا رحيما »**[2] .

* * *

ولكن بعض المستشرقين المغرضـــين اتخذوا من هـــذه القصـــة مادة يحاولون فيهـــا النيل من نبينا صلى الله عليـــه وسلم ، فزعموا أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يحب زينب رضى الله عنها وأنه طلقها من زيد ليتزوجها ، وبئس ما زعموا ، وهم الذين ينتهزون أى فرصة رواها مؤرخونا عن طريق مشكوك فيه أو رووها بحسن نيـــة ، وتناقلوها فى كتبهم ، فأدخلوا عليهـــا من الاسرائيليات ما به يحاولون النيل من الاسلام .

---

(١) الأحزاب : ٣٧ .　　　(٢) الأحزاب : ٤ ، ٥

ونحن بدورنا نذكر القصة التى رواها الطبرى وتناقلتها بعض الكتب الحديثة • فقد روى الطبرى القصة فى تاريخه ، فقال بسند يرفعه الى محمد بن يحيى بن حيان والى غيره :

« ان الرسول — صلى الله عليه وسلم — جاء يطلب زيدا وعلى باب زينب — رضى الله عنها — ستر من شعر ، فرفعت الريح الستر فانكشف عنها وهى فى حجرتها حاسرة ، فوقع اعجابها فى قلب الرسول صلى الله عليه وسلم •

ودعته الى الدخول فأبى وولى — عليه الصلاة والسلام — وهو يهمهم بكلمات ميزت فيها زينب قوله « سبحان الله العظيم ، سبحان الله مصرف القلوب » •

وأقامت زينب — رضى الله عنها — فى مكانها تفكر فيما سمعت من قول ابن خالها حتى جاء زيد ، فكان أول ما لقيته به أن الرسول أتى منزله •

سألها زيد : « ألا قلت له ادخل ؟ » •

فأجابت : « بلى ، قد عرضت عليه ذلك فأبى » •

واستطرد زيد مستفسرا : فسمعته يقول شيئا ؟

قالت : سمعته يقول حين ولى : « سبحان الله العظيم ، سبحان الله مصرف القلوب » •

فأطرق زيد برهة ثم خرج حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال :

« يا رسول الله بلغنى أنك جئت منزلى ، فهلا دخلت بأبى أنت وأمى » .

ثم أضاف متسائلا : أفأفارقها ؟

فقال الرسول صلى الله عليه وسلم : مالك ؟ أرابك منها شيء ؟

فأجاب زيد : لا والله يارسول الله مارابنى منها شيء ولا رأيت الا خيرا ، ولكنها تتعظم على اشرفها ، وان فيها كبرا تؤذينى بلسانها .

قال المصطفى عليه الصلاة والسلام : « أمسك عليك زوجك » .

وأذعن زيد وعاد ليجرب الاحتمال من جديد ، ويكابد مزيدا من الشقاء .

لكن زينب رضى الله عنها هجرته ، فما استطاع اليها سبيلا بعد ذلك اليوم حتى نفد احتماله ففارقها ، وكان الطلاق » .

هذه هى القصة رواها مؤرخ مسلم بحسن نية[1] .

---

(1) كذب بعض الناس فانشأوا أحاديث ليرغبوا الناس فى قراء القرآن وفى العبادات ، وبئس ما فعلوا .. وكذلك وصفوه =

يرى فيهـا القارىء التعمل والصنعة المفتعلة لتكون قصـة مشـوقة ، تصرف فى كتابتها بصورة لا تليق بسـيد المرسلين ، وأدخل عليها من الخيال الزائف ما ننزه عنه الأسماع والأفئدة •

فمؤلف الرواية جعل الريح تتحرك حينما وقف الرسول صلى الله عليـه وسلم أمام الباب ليرى من بداخل الحجرة • ومحمد صلى الله عليـه وسلم الذى أدبه ربه فأحسن تأديبـه ، والذى كان أشد حياء من العذراء فى خدرها ، كان حينما ينادى انسانا فى بيته يقف بعيدا أو على جانب ولم يتصدر الباب ليقع بصره على من بالداخل ، واذا كان من حق الأب أن ينظر الى زوجة ابنه فربما يكون معها أجنبية عنه •

ثم لمن قال الرسول صلى الله عليـه وسلم أنه أعجب بها وأنه أحبها وملكت مجامع قلبه ، ما نرى ذلك الا من تصنيف الراوى ، وما كان الرسـول صلى الله عليـه وسلم الا دائم التسبيح • فلنفرض أنه سـبح فهل نحمل هـذا على الوله والاعجاب ! •

ولقد كان بين زينب وزيد جفوة فما الذى جعل الراوى يستطرد فى الراوية والحوار ، والصراحة التى بهذا الأسلوب

= عليه الصلاة والسلام مع نسائه بأوصاف نحفظ سمعنا عنها ، فمن أين لهم هـذا والرسول صلى الله عليه وسلم يحذر المسـلمين من افشـاء أسرار بيوتهم ؟ وقالوا كل هـذا بحسن نية فأساءوا الى الدين والرسـول •

توغر صـــدر الزوج على هـــذا الطارق ولو كان أبا ، ثم كيف يشتكى منهـــا زيد والحوار يدل على مودة ومحبة •

وهل فى ديننا الســـماح لأى مسلم مهما بلغت قيمته أن يتودد الى امرأة متزوجة ليستولى عليها من زوجها ليدخل بها •

كلا •• وحاش لمثل هـــذا أن يروى عن أبى الانســـانية ومعلم البشرية محمد بن عبد الله صلى الله عليه وســـلم •

فحينما أنهى زيد ما بينه وبين زينب رضى الله عنها بعـــد أن أصبحت الحيـــاة مستحيلة بينهما ثم أوحى الله نزلت آية الأحزاب فابتسم وقال :

« من يذهب الى زينب يبشرها بأن الله زوجنيها » •

فلو كان محمـــد صلى الله عليـــه وسلم محبا ولهاً لذهب اليها ليبشرها بزاوجه بنفسه ، ولم يبحث عن انســـان يذهب اليها ليبشرها بأمر ربه فى هذا الزواج ، كأنه يقول ليس لي يد فى زواجى من زينب ، وانما هو أمر الله لرجل قارب الســـتين من عمره المبـــارك ، فهل يليق به ما يقال عن المراهقين والتافهين فى أفكارهم ونظراتهم وتصرفاتهم ، اذا كنا نعيب على الأفراد العابثين مثل هذا التصرف المهين فما بالك بسيد المرسلين ! •

***

نفذ الرســـول صلى الله عليـــه وسلم ما أمر به ، وتقبله بنفس راضية ، وأرسل الرســـول أنس بن مالك ليبلغ زينب

فقالت : ما أنا بصـــانعة شيئا فى أوامر ربى عز وجل • ثم قامت الى مســـجدها •

وانتشر الخبر فى أنحاء المدينـــة ، ودعى النـــاس الى الطعام ، وصنعت أم ســليم رضى الله عنهـــا حيسا ثم وضعته فى تور • وأرسلت الى رســـول الله صلى الله عليـــه وسلم من يخبره بأن هـــذا الطعام من عندها وأنه قليل ، فنظر اليه ثم قال عليه الصـــلاة والسلام :

« ضعه فى ناحية البيت ، ثم قال لأنس : اذهب فادع لى فلانا وفلانا ــ فسمى رجالا كثيرين ــ قال : ومن لقيت من المسلمين • قال أنس رضى الله عنه : فدعوت من قال لى ومن لقيت من المسلمين فجئت والبيت والصفة والحجرة ملاء من الناس • وقال رسول الله لأنس : جىء (بالطعام) ، فجئت به اليه فوضع يده عليه ودعا ، وقال : ما شـــاء الله ، ثم قال : ليتحلق عشرة عشرة وليسموا وليأكل كل انســـان ممـــا يليه ، فجعلوا يسمون ويأكلون حتى أكلوا كلهم ، فقال لى رسول الله صلى الله عليـــه وسلم : ارفعه • قال : فجئت فأخذت التور ، فنظرت فيه فلا أدرى أهو حين وضعته أكثر أم حين رفعته •

قال : وتخلف رجال يتحدثون فى بيت رسول الله صلى الله عليه وســلم وزوج رسول الله التى دخل بهـــا معهم مولية وجهها الى الحائط ، فأطالوا الحديث ، فشقوا على رسول الله

صلى الله عليه وسـلم وكان أشد الناس حياء ولو علموا كان ذلك عليهم عزيزا ٠

فقام رسول الله صلى الله عليه وسـلم فسلم على من فى حجرته من نسـائه ، فلما رأوه قد جاء ظنوا أنهم قد ثقلوا عليه ، فابتدروا الباب ، فخرجوا ، ومكث رسول الله صلى الله عليـه وسلم فى بيته يسـيرا ، وأنزل الله القرآن فخرج وهو يقرأ هاتين الآيتين :

« يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبى الا أن يؤذن لكم الى طعام غير ناظرين اناه ولكن اذا دعيتم فادخلوا فاذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث ، ان ذلكم كان يؤذى النبى فيستحى منكم ، والله لا يستحى من الحق ، واذا سألتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب ، ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن ، وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا ، ان ذلكم كان عند الله عظيما ٠ ان تبدوا شـيئا أو تخفوه فان الله كان بكل شىء عليما »[1] ٠

ويبدو أن أناسا تكلموا فى سرائرهم كلاما ، فقطع الوحى عليهم كل ما تحدثهم به نفوسـهم ، فلقد فرض الحجاب على نسـاء النبى ــ رضى الله عنهن ــ صـونا لهن ، وبعدا عن الألسـنة والأعين ٠

* * *

---

(١) الأحزاب : ٥٣ ، ٥٤ ٠

انضمت زينب ــ رضى الله عنها ــ الى زوجات النبى • وكانت تعتز بانضمامها الى الرســول صلى الله عليــه وسلم وتفخر بأن الله هو الذى زوجها من فوق سبع سموات • وكانت دائمة العبادة لله ، كثيرة السجود والحمد لله •

روى أن رسول الله صلى الله عليــه وسلم قال لعمر بن الخطاب رضى الله عنه « ان زينب بنت جحش أواهة » ، فقال رجل : يا رســول الله •• ما الأواه ؟ قال : الخاشع المتضرع ، ثم تلا : **« ان ابراهيم لأواه حليم »**[1] •

ظلت وفيــة لزوجات الرســول صلى الله عليــه وسلم ، فقد وقفت بجوار عائشة رضى الله عنها فى محنتها فى حديث الافك ، بالرغم من أن عائشة كانت تنازعها القرب من رسول الله الا أنها كثيرا ما كانت تنصرف الى الله عابدة صائمة •

***

ولـمــا فضل الرسول صلى الله عليــه وسلم الرفيق الأعلى زادت من كرمها وخيرها وداومت على التصدق على المساكين تقربا اليه ســبحانه وتعالى • فكانت تنفق كل ما وصل الى يدها من مال •

روى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه وهو فى امرته أرسل اليها عطاءها اثنى عشر ألف درهم فجعلت تقول : « اللهم لا يدركنى هذا المال فى قابل ، فانه فتنة » •

---

(١) التوبة : ١١٤ •

ثم قسمته الى أهل رحمها وفى أهل الحاجة ، فبلغ ذاك عمر رضى الله عنه فوقف ببابها وأرسل اليها بالسلام وقال : « بلغنى ما فرقت فأرسل ألف درهم تستبقينها » وأرسل الألف فتصدقت بهــا جميعا .

وكانت رضى الله عنها تعمل بيديها فتدبغ وتخرز وتتصدق بما يصل اليها فى سـبيل الله .

***

أعدت كفنهــا ، واســتعدت لاســتقبال الموت وقالت : « أنا قد أعددت كفنى ، وان عمر أمير المؤمنين سيبعث الى بكفن فتصدقوا بأيهما » . وكانت وفاتها عن ثلاث وخمسين ســنة ودفنت بالبقيع عام عشرين من الهجرة . وقالت عائشة رضى الله عنها حينما بلغها النبأ : « ذهبت حميدة متعبدة ، مفزع اليتامى والأرامل » .

وروى أن النبى صلى الله عليــه وسلم قال لبعض نسائه يوما : « أسرعكن لحاقا بى أطولكن يدا » .

قالت عائشة رضى الله عنها : فكنا اذا اجتمعنا فى بيت احدانا بعد وفاة الرسول نمد أيدينا فى الجدار نتطاول ، فلم نزل نفعــل ذلك حتى توفيت زينب ولم تكن بأطولنا ، فعرفنا حينئذ أن النبى صلى الله عليــه وسلم انما أراد طول اليــد بالصــدقة .

وقالت أيضا : « ولم أر امرأة قط خيرا فى الدين من زينب ، وأتقى لله ، وأصدق حديثا ، وأوصل للرحم ، وأعظم صدقة ، وأشد ابتذالا لنفسها فى العمل الذى يتصدق به ويتقرب به الى الله عز وجل » •

وقالت فيها أم سلمة رضى الله عنها :

« كانت زينب لرسول الله صلى الله عليه وسلم معجبة ، وكان يستكثر منها ، وكانت صالحة قوامة ، تعمل بيدها وتتصدق بذلك كله على المساكين » •

روت عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وروى عنها ابن أخيها محمد بن عبد الله بن جحش ، وأم حبيبة بنت أبى سفيان وزينب بنت سلمة : رحمها الله ورضى عنها •

***

أسـماء بنت النعمـان[1]

هى أسماء بنت النعمان بن الجون . تزوجها رسول الله صلى الله عليـه وسلم ، فوجد بها بياضا فمتعها وردها الى أهلها ، ولم يدخل بها صلى الله عليـه وسلم .

***

عمـرة بنت يزيد

هى عمرة بنت يزيد الكلابية ، وكانت حديثة عهـد بكفر ، فلما قدمت على الرسول صلى الله عليـه وسلم استعاذت من الرسول ، فقال لها : منيع عائذ بالله .

وردها الى أهلها ولم يدخل بها صلى الله عليه وسلم .

***

(١) روت كتب السيرة اختلافا كثيرا فى اسماء وعمرة ، ولكننا اعتمدنا على رواية ابن هشام .

السيدة صفية بنت حيى (رضى الله عنها)

صفية بنت حيى بن أخطب من يهود بنى النضير ينتهى نسبها الى هارون أخى موسى عليهما السلام ، وأمها برة بنت سموءل •

تزوجت أولا من فارس قومها وشاعرهم سلام بن مشكم ، ثم ثنت بكنانة بن الربيع بن أبى الحقيق صاحب أعظم حصن فى خيبر ، وهو حصن القموص •

وقد جىء بكنانة هذا بعد أن فتح المسلمون الحصن بعد قتال عنيف الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان عنده كنز بنى النضير ، وسأله النبى عن الكنز فأنكر معرفته به ، فما كان من النبى الا أن قال له : « أرأيت ان وجدناه عندك ، أأقتلك ؟ » •

فقال : نعم •

فلما عثر المسلمون على الكنز عنده ، أسلمه النبى صلى الله عليه وسلم الى محمد بن سلمة فضرب عنقه بأخيه محمود بن سلمة الذى قتله اليهود فى معركة خيبر • وبسبب

هـذه المعركة ما بدا من مساعدة يهود خيبر للأحزاب فى غزوة الخندق ، وابداء الحقد والشر للمسلمين ، فما أن انتهى المسلمون من هـذه الغزوة حتى توجهوا الى ديار اليهود وهم يهتفون : « الله أكبر ، خربت خيبر ، انا اذا نزلنا بساحة قوم سـاء صباح المنذرين » •

وانتقم المسلمون لأنفسهم من اليهود الذين خانوا العهد وأظهروا الغدر فقتلوا الرجال وسبوا النساء ، وكان ممن سبوا عقيلة بنى النضير صفية بنت حيى ـ رضى الله عنها •

وكان فى مقدمة السبايا صفية مع ابنة عم لها ، يقودهما بلال ، ومر بهما على قتلى اليهود ، فكان لكل من السبيتين موقف متباعد •

أما صفية رضى الله عنها فقد كتمت حزنها وتماسكت فى ترفع مظهرة الألم والحسرة ، وأما ابنة عمها فقد صرخت ، وضربت وجهها ، وحثت التراب على رأسها ، ومزقت ثيابها وراحت تصرخ وتولول •

وجىء بهما الى الرسول صلى الله عليه وسلم ، فصاح وهو يشيح بوجهه عن ابنة العم قائلا : « أغربوا عنى هـذه الشيطانة » •

ثم أدنى صفية رضى الله عنها منه فوجد الهدوء والتسلى والتصبر ، فألقى عليها نظرة عطف ورحمة ، ثم اتجه الى بلال

قائلا : « أنزعت منك الرحمـة يا بلال حين تمر بامرأتين على قتلى رجالهما » •

ثم أمر بصفية رضى الله عنها فحيزت خلفه ، وألقى عليها رداءه ، فكان ذلك ايذانا بأنه صلى الله عليـه وسلم قد اصطفاها لنفسه ، ثم قال لها : « هل لك فى » ؟ قالت : يا رسول الله •• قد كنت أتمنى ذلك فى الشرك ، فكيف اذا مكننى الله منـه فى الاسـلام ؟

فأعتقها صـلى الله عليه وسـلم وتزوجها ، وكان عتقها صداقها • فلما كانت عند رواحه احتقب بعيره ثم خرجت معه تمشى حتى ثنى لهـا ركبته على فخـذه ، فأجلت رسـول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ أن تضع قدمها على فخذه فوضعت ركبتها على فخذه فركبت •

***

حملها الرسول صلى الله عليـه وسلم ، حتى اذا كان على ستة أميال من خيبر مال الرسول صلى الله عليـه وسلم أن يعرس بهـا ، فأبت صفية رضى الله عنها فوجد النبى عليها فى نفسـه • فانطلق بهـا الى منزله • فلما كان بالصهباء جاءتها أم أنس بن مالك فمشطتها وجملتها ، وكانت صفية رضى الله عنها من أجمل النساء • وأقيمت وليمة العرس ، وأكل النساء ، وعاد الى صفية سرورها وفرحتها بقربها من رسول الله صلى الله عليه وسـلم ، وهناك سألها قائلا : ما حملك على اباءك حين

أردت المنزل الأول ؟ قالت : يا رســول الله خشيت عليك قرب اليهود ـــ ثم راحت تقص قصة عجيبة .

قالت : انها فى ليلة عرسها بكنانة بن الربيع ، رأت فى المنام أن قمرا وقع فى حجرها ، فلما صحت من نومها عرضت رؤياها على كنانة فقال غاضبا : « ما هـــذا الا أنك تتمنين ملك الحجاز محمدا » . ولطم وجهها لطمة ما يزال أثر منها فيه .

ضرب الرسول صلى الله عليــه وسلم قبته هنــاك ودخل على صفية رضى الله عنها ، وبات رجل من الأنصـــار هو أبو أيوب ابن زيد يقظان ســاهرا متوشحا ســيفه ، يطيف بالقبة على غير علم من الرســول ـــ فلما أصبح صلى الله عليه وسلم سمع حركته ورأى مكانه فسأله .

أجاب : يا رسول الله .. خفت عليك من هـــذه المرأة ، فقد قتلت أباها وزوجها ، وقومهــا ، وكانت حديثــة عهــد بكفر فخشيتها عليك .

فدعا له الرسول صلى الله عليه وسلم قائلا : « اللهم احفظ أبا أيوب كما بات يحفظنى » .

وصل الركب المدينة ، ولم يشأ رســول الله صلى الله عليــه وسلم أن يدخل بصفية رضى الله عنهــا على زوجاته ، فأنزلها فى بيت أحد أصفيائه وهو حارثة بن النعمان الأنصارى .

وانتشر فى المدينـــة خبر صفية رضى الله عنها وجمالها ،

وأتت نســـاء الأنصار ليرين الجمال • وكثر الحديث عن صفية رضى الله عنها وأرادت عائشة رضى الله عنها أن تتحقق بنفسها ، وأن تنظر الى الجمـــال الذى سيشترك معها فى قلب زوجهـــا وحبيبها ، وهل سينقص من منزلتها عند الرسول صلى الله عليه وسلم ، ورآها رسول الانســـانية تخرج متنقبة على حذر ، فتتبع خطواتها من بعيد ، فرآها تدخل بيت حارثة بن النعمان •

وانتظر حتى خرجت ، فأدركها وأخـــذ بثوبها وســـألها مبتسما : « ماذا رأيت يا عائشة » ؟

فقالت ـــ وقد أخذها شىء من الغيرة : رأيت يهودية •

ورد عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تقولى ذلك ، فانها أسلمت وحسن اسلامها » •

***

انتقلت صفية رضى الله عنها الى دارها ، وقابلتها زوجات الرسول صلى الله عليه وســـلم وقد انقسمن الى فريقين : الأول يتكون من عائشة ومعها حفصة وســـودة رضى الله عنهن ، والثانى ومعهن الســـيدة فاطمة بنت المصطفى صلى الله عليه وسلم •

واستطاعت صفية رضى الله عنهـــا بلباقتها وحصافتها وما جبلت عليـــه أن تتغلب على ما يصادفها من متاعب ، فكانت تتقرب اليهن بالكلمة الطيبة ، والمعاملة الحســـنة وأحيانا بالهـــدايا ، فقد قدمت للزهراء حلية من ذهب رمزا لحبها لأبيها ومودة لها •

ولكن لشـــد ما كان يضايق صـــفية رضى الله عنها حينما

كن يتعرضن لها ويصفنها باليهودية ويفخرن عليها بالعروبة .

وسمعت ما آلمها وآذاها من كلام عائشة وحفصة رضى الله عنهما فما أغنتها الدبلوماسية فراحت تشكو للنبى وتجهر بالبكاء ، وأراد النبى الرحيم أن يخفف عنها آلامها ويمحو أحزانها فأخذ يمسح دموعها بردائه ويده ويقول : « ألا قلت لهما : وكيف تكونان خيرا منى ، وزوجى محمد وأبى هارون وعمى موسى » !

وكان كلام الرسول صلى الله عليه وسلم بردا وسلاما على قلب صفية .

* * *

كانت مواقف الزوجات من صفية رضى الله عنها ومسالمتها لهن ومعالجة أمورها بالحكمة مما جعل الرسول صلى الله عليه وسلم يرد عنها ويدافع كلما سنحت الفرصة بل وينزل بالمتدية العقاب أحيانا .

كان صلى الله عليه وسلم فى سفر ، ومعه من زوجاته زينب بنت جحش وصفية رضى الله عنهما ، فاعتل بعير صفية وفى ابل زينب فضل(1) فقال لها : « ان بعير صفية اعتل فلو أعطيتها بعيرا » ، فردت قائلة : « أنا أعطى تلك اليهودية ؟ » .

فغضب النبى صلى الله عليه وسلم ، وهجر زينب رضى الله عنها لذلك ذا الحجة والمحرم وبعض صفر ، ثم أتاها بعد وعاد الى ما كان عليه معها .

---

(1) زيادة .

وحتى فى آخر أيامه صلى الله عليه وسلم ، وقد اجتمع الزوجات حول فراش الرسول صلى الله عليه وسلم فى مرضه الأخير ، قالت صفية رضى الله عنها : « انى والله يا نبى الله لوددت أن الذى بك بى » •

فتبادلت الأخريات نظرات ذات معنى • فما راعهن الا أن قال صلى الله عليه وسلم : « مضمضن » ، فتساءلن فى دهشة : « من أى شىء » ؟ قال صلى الله عليه وسلم : « تغامزتن بها ، والله انها لصادقة » •

* * *

ولحق الحبيب بالرفيق الأعلى ، وظلت صفية رضى الله عنها على الحب والوفاء لرسول الله صلى الله عليه وسلم مخلصة لاسلامها وعقيدتها ، تفوت على المغرضين ما يحاولون به النيل منها •

ولما حوصر أمير المؤمنين عثمان رضى الله عنه ، شاركت فى الدفاع عنه ، لكنها لم توغل فى الخلاف السياسى ، واكتفت بأن وضعت معبرا بين منزلها ومنزل عثمان فكانت تنقل اليه الطعام والماء وهو فى محنة الحصار •

حدثت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن الذين رووا عنها ابن أخيها كنانة ، والامام زين العابدين على بن الحسين ، ومسلم بن صفوان •

ماتت رضى الله عنها فى خلافة معاوية حوالى سنة خمسين ، ودفنت بالبقيع قريبا من المسجد النبوى •

السيدة جويرية بنت الحارث (رضى الله عنها)

نبدأ حديثنا عنها بما روته عائشـــة رضى الله عنها قالت :

« لما قســـم رسول الله صلى الله عليه وسلم ســـبايا بنى المصطلق ، وقعت جويرية بنت الحارث رضى الله عنها فى السهم لثابت بن قيس بن شـــماس رضى الله عنـــه أو لابن عم له ، فكاتبته على نفســـها وكانت امرأة حلوة ذات ملاحة ، لا يراها أحـــد الا أخذت بنفســـه ، فأتت رســـول الله صـــلى الله عليـــه وسلم لتستعينه فى كتابتها ، قالت بنت أبى بكر رضى الله عنها : فوالله ما هو الا أن رأيتها على باب حجرتى فكرهتها ، وعرفت أنه ســـيرى منها ما رأيت ، فدخلت عليـــه ، فقالت : يارسول الله .. أنا جويرية بنت الحارث بن أبى ضرار سيد قومه ، وقد أصابنى من البلاء ما لم يخف عليك ، فوقعت فى الســـهم لثابت بن قيس بن شماس أو لابن عم له فكاتبته على نفسى فجئت أستعينك على كتابتى . قال : « فهل لك فى خير من ذلك » ؟ قالت : وما هو يارسول الله ؟ قال : « أقضى عنك كتابك وأتزوجك » قالت : نعم يارسول الله .. قد فعلت .

قالت : وخرج الى الناس أن رسول الله صلى الله عليـــه وسلم قد تزوج جويرية بنت الحارث ، فقال الناس : أعتقها

رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأرسلوا ما بأيديهم • قالت : فلقد أعتق بتزوجه اياها مائة أهل بيت من بنى المصطلق ، فما أعلم امرأة أعظم بركة على قومها منها » •

وتكمل جويرية بنت الحارث ــ رضى الله عنها ــ الحديث فتقول :

« رأيت قبل قدوم النبى صلى الله عليه وسلم بثلاث ليال كأن القمر يسير من يثرب حتى وقع فى حجرى ، فكرهت أن أخبر به أحدا من الناس حتى قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم • فلما بتنا رجوت الرؤيا ، قالت : فأعتقنى رسول الله صلى الله عليه وسلم وتزوجنى • والله ما كلمته فى قومى حتى كان المسلمون هم الذين أرسلوهم ، وما شعرت الا بجارية من بنات عمى تخبرنى الخبر فحمدت الله تعالى » •

* * *

وجويرية هذه من بنى المصطلق من خزاعة ، أبوها زعيم القوم الحارث بن أبى ضرار • نمى الى علم النبى صلى الله عليه وسلم أن هؤلاء القوم يجمعون الجموع لقتال المسلمين ، فخرج اليهم النبى صلى الله عليه وسلم حتى لقيهم على ماء لهم يقال له المريسيع ، وقاتلوا قتالا مريرا انتهى بهزيمة بنى المصطلق هزيمة منكرة ، قتل فيها مسافع بن صفوان ، وكان شديد العداء للمسلمين وأكثرهم خصومة للرسول صلى الله عليه وسلم ، وكانت زوجته احدى الأسيرات بين المسلمين ، والأسيرات من

النســاء كن يتخذن اماء للبيع أو الخدمة ، ولا يسوى بينهن وبين الحرائر ، وهن محرومات من العتق الا بالمكاتبة واشتراء أنفسهن أو العتق •

ثم كان بشأنها ما أشــار اليه حديث عائشة الســابق وتزوجها الرسول وأصبحت من أمهات المؤمنين ، ولم ترض بغير ذلك بديلا •

يروى أن أباها جاء الى المدينــة قبل أن يعلن الرسول صلى الله عليــه وسلم زواجه بها ، فقال للنبى صلى الله عليــه وسلم : « يا محمد •• أصبتم ابنتى ، وهذا فداؤها فان ابنتى لا يسبى مثلها » ، فقال له الرســول صلى الله عليــه وسلم : « أرأيت أن أخيرها ؟ أليس قد أحسنت ؟ » فأجاب : « بلى » • فأتاها أبوها فذكر لها ذلك فقالت : « اخترت الله ورســوله » • وأصدقها الرسول صلى الله عليه وسلم أربعمائة درهم •

وقالوا انها كانت مباركة فلقد عتق بسببها خلق كثير من قومها ، وأسلم بسببها أناس كثيرون ومنهم الحارث أبوها •

دخل رسول الله صلى الله عليه وســلم وهى فى مسجدها ، ثم مر عليها قريبا من نصف النهار •

فقال : مازلت كذلك ؟

قالت : نعم • قال : « ألا أعلمك كلمات تقوليهن ؟ :

« ســبحان الله عدد خلقه (ثلاثا) ، ســبحان الله رضا نفسه (ثلاثا) ، ســبحان الله زنة عرشه (ثلاثا) » .

وفى صحيح البخارى :

أن النبى صلى الله عليه وسلم دخل عليها يوم جمعة وهى صائمة : فقال : أصمت أمس ؟ قالت : لا . قال : فتصومين غدا ؟ . قالت : لا . قال : فافطرى .

ماتت ســنة خمسين من الهجرة ، وصلى عليهــا مروان رضى الله عنهما .

***

مارية المصرية (رضى الله عنها)

ليست بأم للمؤمنين ، وليست بزوجة ، لكنها أثرت تأثيرا فعالا فى حياة زوجات الرسول صلى الله عليه وسلم ، وامتازت عنهن بشرف الأمومة لابراهيم بن محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام ، وبسببها أنزل الله قرآنا يتلى ، فهى التى خلا بها الرسول صلى الله عليه وسلم فى بيت حفصة وأسدل عليها الستار ، وجاءت حفصة رضى الله عنها ، وكانت فى بيت أبيها ابن الخطاب ، فلما رأت الستر مسدلا قعدت على الباب . فلما خرج الرسول صلى الله عليه وسلم ألفاها جالسة فقالت يا رسول الله أفى بيتى وعلى فراشى ! فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « هى على حرام فأمسكى عنى » ، فقالت : لا أقبل دون أن تحلف لى، فقال : «والله لا أمسها أبدا» . فأنزل الله سبحانه وتعالى على رسوله :

« قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم ، والله مولاكم ، وهو العليم الحكيم »[1] .

---

(١) التحريم : ٢ .

وأنزل الله أيضا :

« يا أيها النبى لم تحرم ما أحل الله لك » الآية[1] .

كانت جارية أهداها المقوقس حاكم مصر ، حينما أرسل النبى صلى الله عليه وسلم كتابه مع حاطب بن أبى بلتعة يدعوه فيه الى الاسلام واتباع الهدى قائلا له :

« قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد الا الله ولا نشرك به شـيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ، فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون »[2] .

وبعد أن تأكدت من صفات النبى الذى يأتى آخر الزمان من ابن أبى بلتعة قال : « كنت أعلم أن نبيا قد بقى ، وكنت أظن أنه يخرج بالشـام ، وهناك كان مخرج الأنبياء ، فأراه قد خرج من أرض العرب ، ولكن القبط لا تطاوعنى ، وأنا أضن بملكى أن أفارقه » .

ويقال انه أسلم وحسن اسلامه وكرم الرسول ، وأرسل معه كتابا الى النبى صلى الله عليـه وسلم وأوصاه بأن يتكتم ما دار بينهما فلا يسـمع القبط منه شيئا .

وعلى طريقة الكرم المصرى ، فقد حمل حاطب هدية خاصة الى الرسول الأمين كانت جاريتين مارية رضى الله عنها وأختها

(١) التحريم : ١ .　　(٢) آل عمران : ٦٤ .

سيرين وعبداً خصياً وألف مثقال ذهبا وعشرين ثوبا من النسيج المصرى وبغلا مسرجا وحمارا أشهب وعسلا وبعض العود والند والمسك •

تلقى النبى صلى الله عليه وسلم كتاب المقوقس وهديته ، وكان قد عاد من الحديبية سنة سبع من الهجرة واختار لنفسه مارية رضى الله عنها ، ووهب أختها سيرين لشاعره الأنصارى حسان بن ثابت ، فولدت له ابنه عبد الرحمن رضى الله عنهم •

وانتشر خبر مارية رضى الله عنها التى اصطفاها النبى صلى الله عليه وسلم وأنزلها منزل حارثة بن النعمان • وربما أتت نساء المدينة ليرين الجمال المصرى ، فقد قالوا عنها انها كانت حلوة بيضاء جعدة الشعر جذابة الملامح •

وربما قلل من شأنها عند عائشة أم المؤمنين الثانية والمقربة من قلب الرسول صلى الله عليه وسلم ، مهما يكن جمالها ومكانتها ، أنها جارية •

ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يتردد عليها كثيرا ، ويمكث عندها طويلا ، واستطاعت بما أوتيت من مميزات أن تحظى منه بمعاملة كزوجة ، وأن يضرب عليها الحجاب شأن أمهات المؤمنين •

ولقد وجدت فى الرسول صلى الله عليه وسلم من الصفات ما أغناها عن الوطن والأهل والعشيرة ، وفى الاسلام والايمان

ما حقق ما كانت تقرأه أو تسمعه فى الانجيل ، فرضبت بالله وبالرسول وبالاسلام .

***

وأراد الله أن يظهر آيته فى مارية الجارية ، ويستجيب دعاءها ، فيحقق أملا طالما رجته من الله ، واذ بها تحس بوادر حمل لم تعرف علاماته من قبل ، فراحت تسأل نفسها عما بها ، ولم تصل الى اجابة شافية فباحت لأختها بشعورها وحالتها ، فأكدت لها سيرين أنها حامل . وأسرعت مارية الى الرسول صلى الله عليه وسلم تزف اليه البشرى فأشرق وجهه ؛ ولهج لسانه بالشكر والحمد لله ، وسرى الخبر فى أنحاء المدينة ، وفرح المسلمون لفرح رسولهم الأمين ، وما نشك فى أن زوجات الرسول قد فرحن لفرح حبيبهن ، فقد وجدن فى مولود مارية عوضا من الله .

وربما تمنين أن يكون لهن مثل ما لمارية رضى الله عنها ، فأغبطنها ووقع فى قلوبهن شىء من طبيعة المرأة من الغيرة والتمنى .

تحكى السيدة عائشة رضى الله عنها فتقول :

« ما غرت على امرأة الا دون ما غرت على مارية ، وذلك أنها كانت جميلة جعدة ، فأعجب بها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان أنزلها أول ما قدم بها فى بيت لحارثة بن النعمان ، فكانت جارتنا فكان عامة الليل والنهار عندها .. فجزعت فحولها الى

العــالية ، وكان يختلف اليها هنــاك ، فكان ذلك أشد علينا ، ثم رزقه الله منها الولد وحرمناه عنه » .

***

ولم تسلم مارية المصرية — وهى الغريبة فى تلك البيئة — من كلام الناس ، فقد كان القبطى الذى جاء مع مارية رضى الله عنها وأختها يمر على مارية أحيانا فيقوم بخدمتها فيأتى لهـا بالماء ويجمع لهـا الحطب ، فتكلم الناس فى ذلك وأساءوا الظن غير مقدرين صلة الغرباء فلم يلتمسوا عذرا وانما قالوا متهكمين : علج[1] يدخل على علجة . فبلغ ذلك الرسول صلى الله عليـه وسلم ، فأرسل على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، فأخذ سيفه وتوجه اليــه فوجده يستسقى لهــا ، فلما رأى ابن أبى طالب شــاهرا سيفه ورأى الشر فى عينيه ، طرح القربة ورقى فى نخلة ، فوقع نظر على — كرم الله وجهه — عليه ، فاذا هو خصى مجبوب . فرجع على الى الرسول صلى الله عليه وسلم فأخبره الخبر ، فقال صلى الله عليه وسلم : « أصبت..ان الشاهد يرى ما لا يرى الغائب » .

وكان هــذا كرامة من الله لامرأة تركت وطنها ورضيت بالله ربا وكرمها الرسول صلى الله عليــه وسلم ، وأقامت بجوار حرمه الآمن .

كان الرسول صلى الله عليه وسلم دائم التردد عليهــا ،

(١) العلج : الكافر .

يرعاها ويسهر على راحتها ، تساعده فى ذلك أختها سيرين ، تمرضها وتقضى حاجتها الى أن حانت ساعة الوضع ليلة من ليالى ذى الحجة سنة ثمان من الهجرة •

ودعا الوالد سلمى زوجة رافع القابلة لتساعدها ، بينما راح الرسول صلوات الله وسلامة عليه ، يتضرع ويدعو ويصلى لله ، وجاء رافع فبشر الرسول صلى الله عليه وسلم بالمولود فوهب له عبدا ، وذلك فى ذى الحجة سنة ثمان ، وسماه ابراهيم ، وتصدق على فقراء المدينة بوزن شعر ابراهيم ورقا • وفرحت أمه به فلقد أصبحت أم ولد وملأت الفرحة أرجاء المدينة ، وتبارى النسوة لارضاعه والسهر عليه ، واختار الرسول صلى الله عليه وسلم مرضعة ولده وجعل فى حيازتها سبعا من الماعز كى ترضعه بلبنها اذا شح ثدياها •

أخذ ابراهيم ينمو يوما بعد يوم ، وتظهر ملامحه • وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يرى فيه ملامحه فتزداد فرحته وتقر به عينيه ، ويرجع به الى ذكرى أولاده الذين فقدهم •

قارب ابراهيم على اتمام عامه الثانى ، لكنه أصيب بمرض مفاجىء ، وهلع قلب الأم وأسرعت الى أختها سيرين لتكون الى جوارها تشد أزرها وتعاونها على تمريض الصغير وقلباهما يكادان ينفطران كلما رأتا المرض يشتد به فيذبل جماله ويصفر لونه •

أما أبو الانسانية محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، فقد أحزنه مرض ابنه واشتداد العلة به ، ولم يصبر أن يكون خارج البيت تاركا أم ولده تقاسى الآلام ، فأسرع معتمـدا على يد عبـد الرحمن بن عوف وحمل ابراهيم من حجـر أمه وهو يجود بنفسـه ، ووضعه فى حجره وقد استسلم لقضاء الله ، فلا يملك الا أن يقول مخاطبا الصغير : « انا يا ابراهيم لا نغنى عنك من الله شيئا » •

واستسلمت روح ابراهيم لبارئها ، ولم يملك النبى صلى الله عليـه وسلم نفسـه والدمع يفيض من عينيه أن يقول : « تدمع العين ، ويحزن القلب ، ولا نقول الا ما يرضى الرب ، وانا يا ابراهيم عليك لمحزونون ، وانا لله وانا اليه راجعون » •

ثم نظر الى الأم الواجمة قائلا : « ان له لمرضـعا فى الجنـة » •

ثم غسله الفضل بن عباس وحمل على سرير صغير وأبوه والمدينـة كلها خلفه الى البقيع ، وهنـاك صلى عليـه الوالد وأضجعه بيده فى قبره ، ثم سوى عليـه التراب ونداه بالماء •

وتصادف عند رجوع المشيعين أن انكسفت الشمس فقال الناس : ان الشمس كسفت لموت ابن رسول الله ، وبلغ ذلك الرسول عليـه الصلاة والسلام فقال : « ان الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا تخسفان لموت أحد ولا لحياته » •

رضيت مارية رضى الله عنها بقضاء الله ، وكان فى رؤية النبى صلى الله عليه وسلم عزاء وسلوى ، والرسول صلى الله عليه وسلم يشفق عليها ويرفق لحالها ؛ وهى البعيدة عن بلدها ـ ويوصى بها ويكرمها حيث يقول : « الله الله فى أهل الذمة ، أهل المدرة السوداء ، والسحم الجعاد ، فان لهم نسبا وصهرا » •

ويقول عليه الصلاة والسلام :

« استوصوا بالقبط خيرا فان لهم ذمة ورحما » •

كان هذا من أجل ابراهيم وأمه مارية ، وقالوا أيضا : ان أم اسماعيل بن ابراهيم منهم •

كان موت ابراهيم فى السنة العاشرة للهجرة ، ولكن ما كاد ربيع الأول يقارب الانتصاف حتى تركها محمد صلى الله عليه وسلم ولحق بالرفيق الأعلى ، تركها على أمل اللحاق به فظلت تنتظر بعده خمس سنوات مقيدة الخطوات لا تذهب بعيدا عن مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم والبقيع راضية بحظها حامدة شاكرة لله أن من عليها بنعمة الاسلام وصحبة الرسول صلى الله عليه وسلم • فكان ينفق عليها أبو بكر ثم عمر رضى الله عنهما من بعده •

ودعاها الداعى فلبت مسرعة لتلحق بالنبى صلى الله عليه وسلم ، كان ذلك سنة ست عشرة من الهجرة فى عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، ولمـــا علم أمير المؤمنين بموتها أخذ يحشد الناس لجنازتها حتى اجتمع خلق كثير ، ثم صلى عليهـــا رضى الله عنه ، ودفنت بالبقيع .



الزوجة خديجة « الاعداد للدعوة »

قامت زوجات الرسول صلى الله عليه وسلم بمساعدته فى التحضير للدعوة وفى نشرها ، وكانت مهمتهن صعبة تحملن فى سبيلها المشاق ، ولا شك أن الزوجة أقرب الناس الى رجلها فهى جزء منه .

« هو الذى خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن اليها »[1] .

« يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء »[2] .

« والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة »[3] .

« فاطر السموات والأرض ، جعل لكم من أنفسكم أزواجا »[4] .

---

(١) الاعراف : ١٨٩ .
(٢) النساء : ١ .
(٣) النحل : ٧٢ .
(٤) الشورى : ١١ .

وبينهما من الألفة والسكون والتواد والتراحم ما ليس بين الآخرين .

« ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة »[1] .

ويبدأ تحمل مشاق الرســـالة المحمدية بالزوجة الأولى أم المؤمنين خديجة رضى الله عنها ، فلقد صادف أياما من زواجهما فترة الاستعداد للوحى ، وهـــذه الفترة كانت أصعب مرحلة فى حياة الرسول صلى الله عليه وسلم ، فهو يحتاج الى الهدوء والراحة فى بيته والانقطاع للتعبد فى مكان بعيد عن الناس ولا يتوافر له ذلك الا فى رحاب زوجة واســـعة الأفق ، كبيرة القلب متفهمة لمنزلة الرجال ، متتبعة للأمور التى كان عليهـــا الأنبياء من قبل ، ولعلها استمعت لابن عمها ورقة بن نوفل وهو يحكى الأحوال التى كان عليها الرسل من قبل .

لقد كانت رجاحة عقلها تتقدم كل هـــذا ، فهى أكبر سنا من محمد ــ صلى الله عليـــه وسلم ــ وطبيعة المرأة اذا كانت أكبر من الزوج أن تحاول الاستحواذ عليـــه لنفسها ، وكان لهما أطفال صغار يوم أن شغل عنها للانقطاع للعبادة ، فلا أقل من أن تقول له شاركنى العناية بهؤلاء الصبية ولا تتركهم عبئا على ، أو تأتى من ناحية التجارة بأموالها والغنى والمـــال ،

---

(١) الروم : ٢١ .

فالحديث في واحدة من ذلك لرجل يريد أن يتفرغ لأمر بعيد عن الدنيا جدير بأن يعكر الصفو ويوقف النمو الفكرى ، ويعطل المواهب ، ويبعد الغايات وحاش لخديجة رضى الله عنها أن تصدر منها كلمة واحدة تذكر فيهما أقل طلب ، أو أدنى مساعدة .

لقد انقطع للتعبد فى غار حراء الليالى ذوات العدد ، والاتجاه الى الله يحتاج الى حياة خاصة يتخلى فيها الانسان كثيرا عن المسئوليات الدنيوية ، ولقد كفته كل هذا الزوجة الوفية خديجة رضى الله عنها .

كان الطريق الى تلقى الرسالة صعبا ، فان العمر الطويل الذى عاشه محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ قبل بلوغ الأربعين ليتلقى الرسالة مباشرة ، ملىء بالتوجيه والتمرين ، وكان جبريل موكلا اليه تربية محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو بين الرجاء والأمل والحب والخوف .

كان أحيانا وهو فى خلوته يسمع صوتا يناديه فيرتجف ويضطرب فيفزع باحثا عن صدر حنون ، فيتلفت فلا يجد الا صدر زوجته . فكانت رضى الله عنها تقف بجواره تهون عليه الأمر ، وتشجعه وتمنيه بمستقبل عظيم ينتظره ، وتحثه على الصبر والمثابرة ، وتدعوه للانصراف لما هو مقبل عليه ، تاركا كل أعباء الحياة عن كاهله .

« وكانت موفقة فى تصرفها فان الانشغال بالطعام ومؤنة الحيـاة لا يتم معه عمل عقلى منتج ، فالهلع والجزع بسبب السـعى للرزق يعطل المواهب ويوقفها ويشـغل النفس عن الصعود الى الارتقاء والعلا » •

كان يتعبد فى الغار على دين ابراهيم عليه السلام ، يتأمل الكون وعظمة خالقه ، ويفكر فى البعث والحساب والجنة والنار ، فاذا فرغ ما معه من الزاد عاد الي بيت خديجة رضى الله عنها فيتزود مرة أخرى وتقابله مبتسمة فرحة بقدومه ، فلم يحدث مرة أن عاتبته على تركه اياها هى وأولادها ، أو قللت من أهمية ما يلجأ اليه من عزلة وصمت وتفكير ، مع شـدة حاجتها اليه فى بيته ومع أولاده ، بل لقد كانت تخاف عليه حتى من الطريق وصعود الجبـل ، والمشـاق التى تصادفه فى طريقه الى الغار ، وربما أرسلت خلفه من لا يراه يراقبه حتى يأوى الى غاره المختار ويرجع ليخبر خديجة رضى الله عنها فتكافئه على ما قدم من عمـل •

وفى وسط الهدوء والسـكينة استمر محمد صلى الله عليه وسلم يصعد فى تفكيره والهامه حتى صفت نفسه ، وأصبح لا يرى رؤيا الا جاءت مثل فلق الصبح •

وحانت ساعة العمل ، وبلغ محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ أشـده وبلغ أربعين سنة ، وجاءه جبريل وهو وحده بالغار ،

ورآه وسمعه يقول له : اقرأ ، قال : لست بقارئ ، فقال له : اقرأ ، قال : لست بقارئ ، فقال له : اقرأ قال : لست بقارئ .

قال جبريل عليه السلام :

« اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الانسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذى علم بالقلم . علم الانسان ما لم يعلم »[1] .

فرجع صلى الله عليه وسلم ترجف بوادره فأخبر بذلك خديجة رضى الله عنها وقال : خشيت على عظمى . كان يرتجف مما أصابه ويرتعد مضطربا خائفا يقول :

« زملونى .. زملونى » فلفته الزوجة الحنون بالثوب وضمته الى صدرها ولسانها يلهج بالشكر والثناء .

« كلا والله لا يخزيك الله أبدا ، انك لتصل الرحم ، وتصدق الحديث ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الدهر » .

وظلت به حتى ذهب عنه الروع .

* * *

أخذت بيده صلى الله عليه وسلم ، وذهبت الى ابن عمها ورقة بن نوفل ــ وكان على علم بما جاءت به الأديان السابقة ــ

---

(١) العلق : ١ ــ ٥ .

وقصت عليه ما رأى محمد صلى الله عليه وسلم ، فابتسم لها وهنأها بمنزلة زوجها العظيم ، وشوق محمد صلى الله عليه وسلم الى رؤية الملك مرة ثانية .

رجعت خديجة رضى الله عنها فرحة مسرورة تشجع النبى صلى الله عليه وسلم وتقوى من عزيمته يحدوها الحب والاخلاص .

« والتشجيع وتوافر الاطمئنان أعظم ما يحتاج اليه الرجل المخلوق لجلائل الأعمال ، ولا يوجد الا حيث يوجد الحب الصحيح » .

ولا شك فى أن عناية الله كانت تكلأ هذا الزواج الموفق ، وترعى هذا الحب العظيم .

وغاب الملك عن محمد صلى الله عليه وسلم ، واشتاق النبى الى لقائه ، وود لو رآه ، وليصبه ما يصبه ، واذا بالملك يقبل يناديه ، وينصت النبى صلى الله عليه وسلم الى صوت حبيب اليه يقول :

« يا أيها المدثر . قم فأنذر . وربك فكبر »(1) .

فقام ليبلغ قومه ، وكانت خديجة رضى الله عنها أول من آمن به ، ووقفت معه تدافع بكل ما تملك عنه الأعداء ، وتمده

---

(1) المدثر : ١ — ٣ .

بكل ما يحتـــاج اليه ، ومواقفها معروفة ، وشأنها مع الكفرة مشـــهود ، وقد تعرضنا لشيء من ذلك عند الكلام على حياتها ، وظلت كذلك على الوفاء والحب والتفانى ، وكانت نعم العون والمساعد الى أن توفيت وتركت قلب الرســـول الوفى يذكرها بالخير كلما سنحت سانحة الى أن اختار الرفيق الأعلى •

* * *

التعدد دليل على صدق النبوة

انتشرت الدعوة ، واتسعت رقعة أرضها ، وازداد عدد متبعيها . واحتاج الرسـول صلى الله عليـه وسلم الى من يساعده ، فانتشرت بيوت زوجاته رضى الله عنهن ، ينقلن أقواله وأفعاله ، والزوجة خـير من يقوم بهذه المهمـة الشاقة ، فهى ملازمة له ومنها يستدل على صدق رسالته ، فالناس آنذاك فى حاجة الى دليل على صدق دعوته صلى الله عليـه وسلم أكثر من أى وقت ، فاذا كانت له زوجة واحدة أو اثنتان فقد تخفيان شـيئا من أعماله ، والكثرة تمنع ذلك وتصير موافقة اجماعية فيكون ذلك خير دليل على صدق صاحب الدعوة ، لأنهن يطلعن على بواطن أمره ، وتعرف كل واحدة من سره مالا يستطيع غيرها أن يطلع عليـه ، فلو كان دعيا فيما يدعو اليه لانكشف أمره ، واذا كان من المستطاع أن تكتمه واحدة لحاجة فى نفسها ، فان من المسـتبعد أن تكتمه الكثيرات ، ولفضلن الرجوع الى أسرهن وقبائلهن وهن بمكانة سامية عند قومهن وقبائلهن .

* * *

فأم حبيبة ــ رضى الله عنها ــ مثلا بنت أبى سفيان سيد قريش وزعيم كبير من زعماء العرب ، كان من ألد أعداء النبى

صلى الله عليـــه وسلم قبل اســـلامه ، رأته ابنته يذل ويهان ويحارب من زوجها ، فلو كان فى رسالته مغمز أو مطعن أو أدنى كذب ، لتركته ورجعت الى أبيها وهى من الصدق والذكاء بمكان ، لكنها فعلت بأبيها أكثر مما لا يتصوره الذين أفنوا أنفسهم فى ســبيل العقيدة والدعوة ، فحينما جاء أبو سفيان الى مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم ــ وقد نقض عهد الحديبية ــ يطلب مد أجل الهدنة ، قصد بيت ابنته أم حبيبة رضى الله عنها ، فقابلته بامتهان لأنه أســـاء الى رسول الله زوجها وألب عليــه الكفار ، بل لقد منعته أن يجلس على فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما طوته بهت الرجل فردته الزوجة البارة الى صوابه قائلة : « بل فراش رسول الله صلى الله عليــه وسلم وأنت رجل مشرك فلم أحب أن تجلس عليـــه » . فلو كان محمد صلى الله عليـــه وسلم كاذبا فهل يطاوع أم حبيبة رضى الله عنها قلبها وعقلها أن تقابل أباها هـــذه المقابلة وأن ترده عن فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولقد ظلت وفية للرسول صلى الله عليه وسلم فى حياته وبعد مماته .

أفليست هـــذه شهادة زوجة على صدق دعوة الرسول صلى الله عليـــه وسلم .

* * *

وجويرية ــ رضى الله عنها ــ بنت الحارث بن أبى ضرار

تشييد قومه ، أصابها من بلاء الأسر وذل النفس ما جعلها تستكتب الرسول صلى الله عليه وسلم ليفك أسرها ، فترجع الى أهلها ، ثم فضلت أن تكون واحدة من نساء محمد صلى الله عليه وسلم ، ويأتي أبوها ليقول للرسول صلى الله عليه وسلم : « يا محمد أصبتم ابنتى وهذا فداؤها ، فان ابنتى لا يسبى مثلها » •

فيقول له الرسول صلى الله عليه وسلم : « أرأيت أن أخيرها ؟ أليس قد أحسنت » ، فيجيب : بلى ، فأتاها أبوها ، فذكر لها ذلك فقالت : « اخترت الله ورسوله » •

فلو كان محمد صلى الله عليه وسلم كاذبا ، فهل ترضى جويرية — رضى الله عنها — بالرجل الذى أذل أباها وقومها ، وأن تعيش فى كنفه ، وتترك العز والسلطان ومتع الحياة ، لتعيش ولتموت فى رحاب رجل لا يكاد يملك قوت يومه •

* * *

وزوجة ثالثة هى صفية بنت حيى — رضى الله عنها — كانت قبل زواجها من الرسول صلى الله عليه وسلم يهودية متعصبة لدينها وقومها ، قتل النبى أباها وعمها وزوجها فى الحرب ، ولكنها رضيت بالرسول صلى الله عليه وسلم زوجا ، وأحبته حبا شديدا ، لما كلف به من نشر دعوة الاسلام ، ورأته بعينيها ما جعلها تتفانى فى طاعته ، بل وتفضل أن تفتديه بروحها وحياتها

حين اقترب من مفارقة الدنيــا قائلة : « انى والله يا نبى الله لوددت أن الذى بك بى » •

فلو لم يكن أكمل الناس فى أخلاقه ، صادقا فى دعوته ، لرجعت الى أهلها اتطلعهم على ما عليــه محمد صلى الله عليــه وســلم •

ثم ماذا فى بيت محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ من النعيم والرفاهية حتى يتمسـكن به ـ وجلهن من سـيدات العرب : بنت أبى سفيان ، وبنت الحارث بن أبى ضرار ، وبنت أبى أمية ابن المغيرة ، وبنت خزيمة بن الحارث ، بجانب ابنتى أبى بكر وعمر ـ رضى الله عنهن ـ والحياة مع الرسول صلى الله عليه وسلم فى شظف من العيش ، وقد لا يجدن أحيانا ما يقمن به الأود ، وقد يفضلن الصيام على الطعام •

فما الذى دعاهن الى التمسك بالحياة معه ، وتفضيله على أنفسهن ؟ انه الله والدعوة والعقيدة والخلق والرجولة •

حتى اذا حدثتهن النفس بالتمتع بالحياة فى ظل محمد ، جاءت آية التخيير بين الحياة مع الزهد فى الدنيا والبعد عن الملذات والعيش مع محمد وبين الطلاق • وكانت فرصة لينطلقن مع الحياة ومتعها ، ففضلن كلهن مجتمعات متحمسات مضحيات الله ورسوله ، وكان هذا دليلا على صدق محمد صلى الله عليه وسلم وأن دعوته من عند خالق الأرض والســماء •

« يا أيها النبى قل لأزواجك ان كنتن تردن الحيـــاة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحا جميـــلا • وان كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فان الله أعد للمحسنات منكن أجرا عظيما »[1] •

اجماع أكثر من سبع زوجات على ما امتاز به محمد صلى الله عليـــه وسلم من الخلق ، وعلى صدقه فيما يقول ، وحبهن له وتفانيهن فى خدمته ، صار أقوى الأدلة على صدق رسالته ، فهو صلى الله عليـــه وسلم ليس بســـاحر و لابكاهن ، ولا تعلم ما يأتى به على يد أعجمى كما يدعى الكفار •

* * *

والانســـان العادى غير المتعصب يستطيع أن يلتمس الدليل من التعدد على نبوة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ، وأن رســـالته من عند الله ، وأنه ليس رجلا عاديا يأتى بمبادئه من تلقاء نفسه ، بل ان وراءه قوة خارقة لا يستطيع البشر أن يرقى رقيها ، وبهذا طالعتنا الأخبار من الهند بما قاله الرجل البوذى الذى أســـلم حديثا وترك ما كان عليـــه قومه ، فقد وقف طويلا يفكر فى أمر التعدد ، وكيف استطاع النبى محمد صلى الله عليـــه وسلم أن يجمع بين هؤلاء النسوة ، وأن ينظم حياتهن بجانب ما قام به من أعمال عظيمة جمع فيها بين تنظيم الحياة الاجتماعية بين أصحابه والصلة بينه وبين الله ، والحروب

---

(١) الأحزاب : ٢٨ ، ٢٩ •

التى خاضها وانتصر فيهـا ، والحياة المستقرة لمن تمسك بالمبادىء التى دعا اليها .

يقول البوذى الذى أسلم حديثا :

« من دلائل النبوة للنبى محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ أنه تزوج تسعا ولم تشك واحدة منهن فى تصرف من تصرفاته ، ومع أنه كان مشـغولا بالفتوحات الا أنه كان عادلا بينهن ، ومع قيادته الرشيدة فى الحروب فانه كان يميل الى السـلم ، ومع كثرة المـال الذى كان يأتيه فقد كان لا يبقى شـيئا عنده وهـذه قدرة فوق طاقة البشر لا يتحملها الا نبى يوائم بين أبياته عادلا ، وتشهد كل نسائه له بأنه على خلق عظيم ، فدل ذلك على أنه نبى اذ ليس فى قدرة بشر أن يوائم بين سلوكه وكثرة ضيوفه وانشغاله بالحروب وانشغاله بالصدقات ، وهذا يكفى لمن قرأ سيرته العطرة فى الاعتقاد بأنه نبى » .

* * *

حسن معاملته لزوجاته

ولعل من حكم تعدد زوجاته ، صلى الله عليه وسلم ، أن نتعلم عمليا من حياة الرسول صلى الله عليه وسلم كيف نعامل زوجاتنا وبخاصة اذا تزوج المســلم أكثر من زوجة ، فلقد غير الاسلام حال الزوجة عما كانت عليه فى الجاهلية من ظلم وغبن واحتقار فرضته العادات الجاهلية .

يقول عمر بن الخطاب رضى الله عنه : « والله انا كنا فى الجاهلية ما نعد للنســاء أمرا حتى أنزل الله فيهن ما أنزل وقسم لهن ما قسم » .

لقد أنزل الله فيهن ما يحفظ عليهن كرامتهن ، ويضمن لهن الحرية والمساواة فى الحدود الطبيعية التى خلقت المرأة عليها . يقول سبحانه وتعالى :

« ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف »(١) .

فالنساء مثل الرجال لهن حقوق كحقوق الرجال ، وعليهن واجبات كواجبات الرجال :

« ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا »(٢)

---

(١) البقرة : ٢٢٨ . (٢) الروم : ٢١ .

فالمرأة كالرجل فى حقيقة التكوين الانســـانى ، فهى من نفس الرجل لم تخلق من مادة أخرى أقل أو أحط من المادة التى خلق منها ، فلها مثل الغرائز والعواطف والحقوق والواجبات التى للرجل .

وقوله تعالى : « **الرجال قوامون على النساء ....** »[1] .

انما هى درجـــة امتاز بها الرجال عن النســـاء لضرورة اجتماعية لابد منها ، فهو رب الأسرة ومسئول عنها ، وأقدر على تحمل مسئولياتها ، ولهذا علل ســـبحانه وتعالى هـــذه « القوامة » :

« **.... بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم** »[2] .

ولهذا وجه الحديث الى الرجال فقال ســـبحانه وتعالى : « **وعاشروهن بالمعـــروف** »[3] « **فلا تعضـــلوهن أن ينكـــحن أزواجهن** »[4] وقوله تعـــالى : « **هن لباس لكم وأنتم لباس لهن** »[5] .

---

(1) النساء : ٣٤ .
(2) النساء : ٣٤
(3) النساء : ١٩ .
(4) البقرة : ٢٣٢ .
(5) البقرة : ١٨٧ .

فكل من الرجل والمرأة ستر لرفيقه ومأوى له وسكن لعواطفه وراحة لمتاعبه وأمن لمخاوفه .

ولقد كرم الرسول صلى الله عليه وسلم المرأة عامة والزوجة خاصة فى كثير من أقواله ، كقوله صلوات الله وسلامه عليه : « اتقوا الله فى النساء » .. « النساء شقائق الرجال » .. « خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلى » .. « وما زال جبريل يوصينى بالنساء حتى ظننت أنه سيحرم طلاقهن »[1] .. « لا يفرك مؤمن مؤمنة .. ان كره منها خلق رضي آخر » .. « استوصوا بالنساء خيرا » .. « الرجل راع فى بيته ومسئول عن رعيته ، والمرأة راعية فى بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها » .

* * *

وكان الرسول — صلى الله عليه وسلم — نموذجا عمليا بمعاملته لزوجاته ، فكان مثلا أعلى يحتذى به كل مسلم ، فبرغم كثرتهن — والكثرة داعية الى المشاكل التى تحتاج الى حلول تتخللها تشريعات نحن فى حاجة ماسة اليها فى حياتنا الزوجية — لم يتخذ طريقا غير مألوف فى معاملته لزوجاته ، وهو سيد القوم ، فلم يتخذ القوة التى يقهر بها النساء ، كما يطيب للأقوياء أن يتحكموا فيهن ، ويلذ لهم أن يتذللن تحت أقدامهم منزويات فى

(١) حديث جبريل هذا موضوع .

حجراتهن وقد أوصدت الأبواب دونهن خاضعات مستكينات ، والويل لمن تشتكى ضرتها ، فيمسكوهن بقبضـــة من حديد ، لا يفهن بكلمة فى حضرتهم الا بعد الاذن ، لأنهن قد اتخذن للترفيه والاستمتاع على ما كان عليه السادة فى زمانه •

* * *

كلا •• ما كان هـــذا خلق داعية الله ، ورسول الانسانية ــ صلى الله عليه وسلم ــ فلقد كانت معاملته لنســـائه مستمدة من تعاليم الســـماء ومن المنهج الاســـلامى الذى تخلق به : « أكمل المؤمنين ايمانا أحســـنهم خلقـــا ، وخياركم خياركم لنسائهم » •١

لم يضرب نساءه قط ، برغم الكثرة وتعدد المشـــاكل ، بل كان يعيب ضرب النســـاء ويكرهه • ودمغ ذلك بقوله صلى الله عليـــه وسلم :

« أما يستحى أحدكم أن يضرب امرأته كما يضرب العبد •• يضربها أول النهار ثم يجامعها آخره » فلا يلجأ الرجل لضرب زوجته الا عند العصيان والتمرد ، ضربا غير مبرح ، فان أجدى • والا فالفراق بعد استنفاد جميع السبل ومنها الهجر والصلح • كما ورد فى القرآن الكريم •

والرسول صلى الله عليه وسلم يعرف أن المرأة مهما ادعت القوة فهى ضعيفة تحتاج فى معاملتها الى الشفقة والرحمة لأنها

« خلقت من ضلع لن يستقيم لك طريقه ، فان استمتعت بهـا استمتعت بها وبها عوج ، وان ذهبت تقيمها كسرتها ، وكسرها طلاقها » •

* * *

كان صلى الله عليـه وسلم يترك لزوجاته حرية الكلمة والتعبير عن الرأى بكل شـجاعة ما دام ذلك لا يمس شـعور الأخريات ، أو يسىء الى التسامح أو يغضب الله ورسوله ، وله فى ذلك مواقف لطيفة ، فحينما وصلت زوجته صفية بنت حيى ــ رضى الله عنها ــ الى المدينة ، وتسامع نساء الأنصار فجئن ينظرن جمالها ، وخرجت عائشة رضى الله عنها متنقبة ولحهـا الرسول صلى الله عليه وسلم ، فتتبع خطواتها من بعيد فرآها تدخل بيت حارثة بن النعمان ــ وقد نزلت به صفية رضى الله عنها ــ وانتظر حتى خرجت فأدركها وأمسك بثوبها ، وسألها ضاحكا : « كيف رأيت يا شقيراء » ؟ فهزت كتفها قائلة : « رأيت يهودية » ورد عليهـا الرسول صلى الله عليـه وسلم بالحسنى قائلا : « لا تقولى ذلك ، فانها أسلمت وحسن اسلامها » •

كان يخاطب نساءه برفق ولين ، ولا يجد غضاضة أن تناقشه الواحدة منهن ، وأن يترك لها المبادرة والأخذ بزمام الحديث ، فعائشة ــ رضى الله عنها ــ تقول للرسول صلى الله عليـه وسلم فى معرض حديثها أمام أبيها : « تكلم ولا تقل الا حقا » • وحفصة ــ رضى الله عنها ــ تقاضيه سـحابة

نهاره ، وكانت تناقشه الحديث ، وربما بادلها الرأى بالرأى والدليل بالدليل .

ففى حديث بيعة الرضوان قال صلى الله عليه وسلم : « لا يدخل النار ان شاء الله أصحاب الشجرة والذين بايعوا تحتها » فقالت حفصة رضى الله عنها : « بلى ، يا رسول الله » فانتهرها ، فتلت الآية :

« وان منكم الا واردها ، كان على ربك حتما مقضيا »(١) .

فما كان من النبى صلى الله عليه وسلم الا أن تلا الآية بعدها **« ثم ننجى الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا »**(٢) .

ولم ير الرسول الرحيم غضاضة فى أن يردها الى الصواب بالرفق واللين . ويعجب عمر رضى الله عنه من ابنته لأنها فى رأيه تجترىء على الرسول صلى الله عليه وسلم فيغضب من جرأة حفصة . ويرى الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ الغضب باديا على وجه عمر فيقول له : « ما لهذا دعونك » .

وكثيرا ما كان يساعدهن ــ صلى الله عليه وسلم ــ فى أعمال المنزل فيضع لنا تشريعا يؤيده بقوله : « خدمتك زوجتك صدقة » .

* * *

ولا ينسى التاريخ موقفه النبيل من زوجته عائشة رضى الله عنها ، ومعاملته الطيبة ، وحديث الافك يذيعه المغرضون ،

---

(١) مريم : ٧١ .　　(٢) مريم : ٧٢ .

وينشرة بين الناس المنافقون ، حتى جعلوه أشبه بحقيقة من كثرة اللغو فيه ، والمجاهرة به ، ولم تعلم عائشة ــ رضى الله عنها ــ أول الأمر بما يلوكه الناس ، ولم يخبرها الرسول فلم يكن صلى الله عليه وسلم مصدرا لخبر سوء ما يزال يتردد على ألسنة المنافقين حتى يقاضيها به ، فيؤذيها بما لم تقترفه • كان حليما فكظم ما فى قلبه ، وكانت معاملته لها ما نسميه ــ بالرسميات ــ فلم يظهر الغضب ولا العطف ولا الحب • كان يدخل عليها وعندها أمها تمرضها فيسلم ثم يقول : « كيف تيكم » ؟ •

وفى سرية تامة أخذ الرسول صلى الله عليه وسلم يدرس المشكلة سأل أقرب الناس اليه أسامة بن زيد فقال : « هم أهلك ولا نعلم الا خيرا » ، وعليا كرم الله وجهه فكان مما قال : « •• وسل الجارية تصدقك » ، فسأل بريرة فقالت : « والذى بعثك بالحق ما رأيت عليها أمرا أغمصه عليها ، غير أنها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها فتأتى الداجن فتأكله » • وسأل ضرة هى زينب بنت جحش ــ رضى الله عنها ــ فقالت بعد أن استعاذت : « أحمى سمعى وبصرى والله ما علمت الا خيرا » •

وقام صلى الله عليه وسلم فى الناس يخطبهم ولا علم لعائشة بذلك ، فكان مما قاله : « يا معشر المسلمين من يعذرنى من رجل قد بلغنى عنه أذاه فى أهلى ، والله ما علمت على أهلى »

الا خيرا ، ولقد ذكروا رجلا ما علمت عليه الا خيرا وما يدخل عاى أهلى الا معى » رواه البخارى فى صحيحه .

وكان النبى صلى الله عليه وسـلم متأثرا متألما ، فتأثر الناس لنبيهم وقائد دعوتهم . وطلبت عائشة رضى الله عنها أن تتمرض فى بيت أبيها لتوفر على أمها المتاعب ، ثم علمت بالقصة مصادفة فزاد همها وتعبها . وعلم الرسول صلى الله عليه وسـلم بأن الحديث وصـل الى مسامعها ، فأراد أن يعرف الحديث من مصدره بالرفق واللين حتى يتخذ فيه موقفا يتفق والتشريع الاسـلامى فقال :

« يا عائشة فانه قد بلغنى عنك كذا وكذا فان كنت بريئة فسيبرئك الله ، وان كنت ألممت بذلك فاستغفرى الله وتوبى اليه ، فان العبد اذا اعترف بذنبه ثم تاب ، تاب الله عليه » .

ولكن أنى لبنت أبى بكر — رضى الله عنها — أن تتوب من ذنب لم تقترفه ، لقد أقسمت ألا تتوب ، فهى بريئة كبراءة الذئب من دم ابن يعقوب ، وما كان لها من منقذ الا بوحى من الله ، ولقد برأها رب السـماء ، وأبت عائشة رضى الله عنها الا أن تشـكر الله وحده فهو الذى برأها ودفع عنها .

* * *

لقد انقطع الوحى ، وما عاد ينزل ليبرىء كل زوجة قد يصيبها ما يصيب عائشة رضى الله عنها . ولكن الرسول صلى الله عليه

وسلم ألقى علينا درسا عمليا فى كيفية معالجة ما يصادفنا من مشكلة كهذه ، فلا نتعجل قطع الصلة ، ولا نثير النقمة والحمية ، فنغلظ القول ، ونسىء الظن ، ونقلب حياتنا الى جحيم ، ولنا فى رسول الله أسوة حسنة ففى معاملته لزوجاته رفق ومروءة ومودة وطول أناة وكرم ومسلك رشـــيد حتى انجلت الغمة وذهبت الفتنة وظهرت البراءة .

ولقد أراد المسلمون فى المدينة أن يفتكوا بأصحاب الفتنة ، ولكن الرسول صلى الله عليـــه وسلم عفا عنهم ، وكان بأصحابه رؤوفا رحيما وذلك بعد أن أقام عليهم الحد .

* * *

وقد يعاقب الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ زوجة لأنها آذت غيرها مهما تكن منزلتها عنده ، ليبين لنا عمليا أن العقاب أحيانا علاج لحسم الداء ، ولعدم تكرار ما يحدث ، وليكون مدعاة لاحترام الغير ، والبعد عن ايذائه باللسان .

كان النبى صلى الله عليه وسلم فى سفر ومعه من زوجاته زينب بنت جحش وصفية بنت حيى رضى الله عنهما ، فاعتل بعير صفية ــ وفى ابل زينب زيادة ــ فقال لها الرسول :

« ان بعير صفية اعتل ، فلو أعطيتها بعيرا » .

فردت قائلة : « أنا أعطى تلك اليهودية » ؟

فغضب النبى صلى الله عليـه وسلم من زينب وهجرها ذا الحجة والمحرم وبعضا من صفر •

فما عادت الى اساءة أحد بعدها •

وقد يكون الطلاق أحيانا أداة لاصلاح زوجة بها شـدة تفشى ما يأمرها الرسول صلى الله عليه وسلم بكتمانه ، وهـذا ما حصل مع حفصـة ـ رضى الله عنها ـ حينما أمرها بكتمان سر مارية فأذاعته • وقع بسببها هجره ، صلى الله عليه وسلم ، لزوجاته شـهرا ، ثم راجعها جبرا لخاطر عمر رضى الله عنه • وبهذا وغيره ضرب لنا الرسول صلى الله عليه وسلم مثلا أعلى ، علمنا منه الحكمة البالغة فى حسن معاملته لزوجاته وبهذه المعاملة الحسنة زاد حبه ومنزلته فى قلوبهن •

وبهـذا أيضا ضرب لنا مثلا أعلى لحسن معاملة الزوجة بصورة لم تعهدها البشرية من قبل • لقد حفظ حقها ، واستأذن منها ولم ينس ذلك حتى فى ساعة الشدة ، فمن الذى يعيب على النبى صلى الله عليـه وسلم ، وهو فى مرض موته ، أن يذهب الى البيت الذى يريده ويحب أن يتمرض فيه •

لكنه الأدب الذى أدبه به رب السماء ، والحياء الـذى جمله الله به ، فقد تمسك بما شرع وقنن ، وقد بقيت أيام قليلة من حياته المباركة ، فراح ينظر الى زوجاته رضى الله عنهن ـ

وقد اجتمعن حـــوله وهـــو يغالب المرض ـــ قائـــلا : أين أنـــا غدا ؟ أين أنا غدا ؟ وعرفت زوجاته اللبيبات ما يقصد صلوات الله وسلامه عليه ، ولم يتعودن منه الا الخلق الحسن ، فقلن : « يا رسول الله لقد وهبنا أيامنا لعائشة » .

وفى هـــذا حكمة بالغة ما بعدها حكمة ولا قول لقائل .

* * *

أسباب اجتماعية وسياسية

يضاف الى الأسباب الدينية والتشريعية لتعدد زوجات النبي صلى الله عليه وسلم أسباب اجتماعية وسياسية منها ما يأتي :

كان زواج الرسول صلى الله عليه وسلم من سودة رضى الله عنها فيه تأليف لبنى عبد شمس وبنى هاشم وتخفيف لحدة التوتر بينهم ، فهو من باب تأليف القلوب ، وكان تشريفا لبنى النجار أخوال الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ لأن أمها الشموس بنت قيس كانت من بنى عدى بن النجار •

كانت قبل أن تتشرف بزواجها من الرسول صلى الله عليه وسلم زوجة لابن عمها ، فتوفى عنها بعد رجوعه من الحبشة ، وكانت من أسبق النساء الى الاسلام ، آمنت وهجرت أهلها وهاجرت الى الحبشة فرارا من اعنات المشركين لها ولزوجها •

فلما مات لم يبق لها الا أن تعود الى أهلها فتؤذى أو تتزوج بغير كفء أو بكفء لا يريدها ، فضمها الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ حماية لها وتأليفا لأعدائه من آلها •

وزواجه ، صلوات الله وسلامه عليه ، من صفية ــ رضى الله عنها ــ كان اعزازا من ذل • وكانت هذه سنة رسول الله

صلى الله عليه وسلم فى معاملة الناس • لاسيما النســـاء اللاتى تنكسر قلوبهن من الذل بعد فقد الحماة والأقارب ، فهى ســـيدة بنى قريظة ، وهو مخير بين أن يلحقها بأهلها أو أن يعتقها ويتزوج بها فاختار الرســـول صلى الله عليـــه وسلم الزواج منها بعـــد موافقتها ورغبتها •

ويضرب لنا الرسول صلى الله عليه وسلم المثل الأعلى فى المحافظة على الشـــعور الانسانى ، فلقد أنب بلالا لأنه مر بها وبابنة عمهـــا على قتلى اليهود ، فقال له مغاضبا : « أنزعت الرحمة من قلبك حين تمر بالمرأتين على قتلاهما » •

ولمـــا احتقرتها زينب بنت جحش ــ رضى الله عنهـــا ــ فلقبتها مرة باليهودية ، هجرها الرسول صلى الله عليه وســـلم أكثر من شهرين لا يكلمها • فلقد أخذ ينتصر لهذه الغريبة ويدفع عنهـــا الضيم •

وجويرية بنت الحارث ــ رضى الله عنها ــ كان أبوها زعيم بنى المصطلق ، وقد هزمه المسلمون هزيمة نكراء فكاد الهم يقضى عليهم • فأراد النبى صلى الله عليه وسلم مواساتهم فصاهرهم بالزواج من ابنة زعيمهم ، وتبعا لهذا تحرج المسلمون من سبيهم لبنى المصطلق ــ وقد أصبحوا أصهار الرسول صلى الله عليـــه وسلم ــ ففكوا أسرهم ، وبذلك عاد للقوم حريتهم وارتفعت معنوياتهم ، ودخلوا فى الاسلام وحسن اســـلامهم ، ثم خيرها أبوها بين العودة اليه أو البقاء فى حرم الرسول ، فاختارت

البقاء فى حرم الرسـول صلى الله عليـه وسلم فأسلم الرجل وحسن اسـلامه •

وزواجه من أم حبيبة ــ رضى الله عنها ــ كان لرفع الروح المعنوية عند المسلمين • فلقد هاجرت مع زوجها الى الحبشة وارتد الزوج ، فلو كان فى قلبها ذرة من شغف لطاوعت الزوج ، وخرجت معه على الاسلام ، ولكنها ظلت مستمسكة بدينها وفية لله ولرسوله ومعها أبناؤها فى حاجة الى النفقة والطعام والعناية •

صارت حديث قريش كلها ، وهى بنت أحد سادتها يلوك قصتها الرائح والغادى ، فكان فى زواجها من الرسول الوفى قطع للألسنة ، فلا تتكلم عن المسلمين شرا •

أنزلها الرسول صلى الله عليـه وسلم المنزلة اللائقة بها ، وهى منزلة أمهات المؤمنين ، تلك المنزلة التى تتمنى كل امرأة أن تصل اليهـا •

وكذلك كانت أم سلمة رضى الله عنها •• تركت كل شىء فى سـبيل دينها ، وكثر أولادها ، واستعدت لتحمل عبء الحياة بعد أن استشهد زوجها استشهادا بطيئا وهو لا يفتأ يجاهد فى سـبيل الله •

وتسابق كبار الصـحابة ليحملوا عنهـا العبء ، ولكن الرسـول الأعظم أكرمها وتزوجها فوقاها شر العوز ونفقة الأولاد •

ولقد أراد أن يكرم أبا بكر رضى الله عنـــه ويقربه أكثر من قلبه فيصهر اليه • وأى إكرام أكبر من أنه تزوج ابنته : فزاد القرب ، وارتفعت المكانة ، وعم الوفاق ، وقويت الرابطة • وفعل ذلك مع عمر فتزوج حفصـــة رضى الله عنهما ، فقويت الرابطة بينه وبين عمر ، وزاد التعاون وعمت الألفة ، وكثرت المحبة ، مع أقوى رابطة فى الوجود رابطة أخوة الاسلام •

* * *

مراكز للدعوة

كانت بيوت النبى صلى الله عليه وسلم مراكز للدعوة ينهل الناس منها ما يريدون من تشريع ينفعهم فى دينهم ودنياهم ، وليسألوا عما يفعل الرسول صلى الله عليه وسلم ويقول وعما خفى عنهم واستعصى ، وهن يجبن ويعلمن وينشرن أقواله وأعماله .

ولقد ضرب بعضهن بسهم وافر فى نشر الدعوة ، فعائشة رضى الله عنها كانت فى مقدمة الزوجات ، وكان بيتها جامعة كبرى للمسلمين ، ويكفيها فخرا أنها حدثت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بألفين ومائتين وعشرة أحاديث .

وكانت من الفصاحة والبلاغة والذكاء ما جعلها تناقش فى المسائل التى يختلف فيها الصحابة ، فروى عنها أكابرهم وفى مقدمتهم عمر رضى الله عنه .

زوجة يعرف الرسول — صلى الله عليه وسلم — فضلها على الدعوة ، أفلا ينزلها منزلة فريدة لا تصل اليها زوجة أخرى ؟ كانت عائشة رضى الله عنها جديرة بالحب والمودة مع صغر سنها ، وبعد ما فضلت به على أمثالها ، ويكفيها فخرا أن يقول الرسول صلى الله عليه وسلم فيها « خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء »[1] .

---

(١) حديث الحميراء ضعيف .

واذا كان من التشريع ما يصلح للزوجة وغيرها ، فمن الأحكام ما تستحى المرأة من الاستفهام عنه من الرجال ، ولا تصلح له الا امرأة بل زوجة .

جاءت امرأة من الأنصار ، فقالت : يا رسول الله .. كيف أغتسل من الحيض ؟ قال : خذى فرصة(١) ممسكة فتوضئى ثلاثا ، ثم ان النبى صلى الله عليه وسلم استحيى فأعرض بوجهه ، وقال : فتوضئي بها .

تقول راوية الحديث السيدة عائشة رضى الله عنها : « فأخذتها فجذبتها فأخبرتها بما يريد النبى صلى الله عليه وسلم » .

فلزم اذن أن يتلقى أحكام النساء من الرسول صلى الله عليه وسلم عدد كثير منهن ، اذ القليل لا يتأتى به المصلحة ، والأنسب أن يكن أزواجا له لأن للزوجات خصائص بها يتمكن من السؤال عما يلزم بغير استحياء أو تأفف .

* * *

وكان من الزوجات من اختيرت لتكليف دعت اليه ضرورة لتحقيق مصلحة دينية واجتماعية ، كما اختيرت زينب بنت جحش رضى الله عنها للقضاء على مشكلة التبنى كما هو معروف عند العرب ، فلقد كان الرجل يلحق بنسبه من يشاء فيعطيه اسمه ولقبه ويأخذ مكان الابن الحقيقى ويتساوى معه فى كافة

---

(١) قطنة أو صوف مطيبة بالمسك .

الحقوق ، فتحرم عليه زوجة المتبنى مع أنها فى الواقع حلال له ، ويرث أمواله وهى فى واقع الأمر ليست أمواله ، وقد تحل له أخت تنتمى الى غير أبى المتبنى وهى فى الحقيقة أخته ، فتختلط الانساب ويأخذ ما ليس من حقه ، فنهوا عن هذا لفداحة نتائجه .

« وما جعل أدعياءكم أبناءكم ، ذلكم قولكم بأفواهكم ، والله يقول الحق وهو يهدى السبيل . ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله ، فان لم تعلموا آباءهم فاخوانكم فى الدين ومواليكم »[1] .

ولم يكن العربى يتصور أن يتزوج الأب المدعى زوجة ابنه ، فلو صدر هذا من انسان عادى لكان الانسان فى شك من أمر هذا التحريم الحلال ، فربما يتأوله أو يخرجه على مخرج غير صحيح ، لكن حينما يصدر من النبى فيتزوج زوجة متبناه يكون أوقع فى النفس وأقوى فى الدلالة على ابطال هذه المعادة ، وأدعى ليتقبله المسلمون فينهى المشكلة .

« لكى لا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم اذا قضوا منهن وطرا ، وكان أمر الله مفعولا »[2] .

ولما تحرج النبى صلى الله عليه وسلم من هذا الزواج فى أول الأمر ، وتأذى من الاقبال على الدخول بزوجة المتبنى ،

---

(١) الأحزاب : ٤ ، ٥ .   (٢) الأحزاب : ٣٧ .

أخبره الله أن هـذا الزواج بأمره وللرسـالة فلا ينبغى أن يتأخر الرسول أو يتباطأ •

« ما كان على النبى من حرج فيما فرض الله له ، سنة الله فى الذين خلوا من قبل ، وكان أمر الله قدرا مقدورا »[1] •

ولقد كان الرسول صلى الله عليـه وسلم يشاور نساءه اذا تأزمت الأمور فيشرن عليـه بالرأى الصائب ، فلقد صالح النبى صلى الله عليـه وسلم أهل مكة وكتب كتابه المشـهور فى صلح الحديبية ، وغاب عن المسلمين فى ذلك الوقت حكمة هـذا الصلح ، فأصـابهم بعض الغـم والتراخى اذ كانوا يريدون اسـتعمال القوة وأداء العمرة ودخول مكة • ثم طلب منهم الرسول صلى الله عليـه وسلم النحر والحلق فلم يقم منهم رجل بعد أن قال ذلك ثلاث مرات •

فدخل على أم سلمة ــ رضى الله عنها ــ فذكر لها ما لقى من النـاس ، فقالت رضى الله عنهـا : يا نبى الله ، اخرج الى المسـلمين ثم لا تكلم أحـدا حتى تنحر بدنتك وتدعو حالقك فيحلقك • فخرج النبى عليه الصلاة والسلام وعمل بما أشارت به زوجته فنحر وحلق ، فلما رأى المسـلمون ذلك قاموا فنحروا ، وجعل بعضهم يحلق بعضا حتى كاد بعضهم يقتل بعضا غما وهما •

أضف الى ذلك أن كثـيرا من الآيات والأحـكام نزلت بسـببهن •

---

(١) الأحزاب : ٣٨ •

شهدت أم سلمة رضى الله عنها فتح خيبر ، وقالت مع نسوة : ليت الله كتب علينا الجهاد كما كتب على الرجال ، فيكون لنا من الأجر مثل ما لهم .

فنزل قوله تعالى :

« ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض ، للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن ، واسألوا الله من فضله »[1] .

ولعل حديث ابن مسعود رضى الله عنه هو الذى فسر نصيب الاكتساب فيما رواه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بسند حسن ، فقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ان الله كتب الغيرة على النساء والجهاد على الرجال ، فمن صبر منهن ايمانا واحتسابا كان له مثل أجر الشهيد »[2] .

حقا لقد كانت مهمتهن صعبة تجاه الرسالة ، لذلك لم يتركهن الله سبحانه وتعالى فراقب تحركاتهن وتجمعاتهن وما تحدثت به نفوسهن ، كى يمتنعن عن الانشغال بغير الرسالة والرسول — صلى الله عليه وسلم — وحتى يبتعدن عن كل ما يعوق سير الدعوة أو يؤثر فى نشرها .

اجتمع نساء النبى صلى الله عليه وسلم وأردن زيادة النفقة

---

(١) النساء : ٣٢ .

(٢) الجامع الصغير للسيوطى ج ١ ص ١٢٠ .

وتغايرن ، فأحزن ذلك النبى صـــلى الله عليـــه وســـلم فنزل قوله تعالى :

« يا أيها النبى قل لأزواجك ان كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحا جميـــلا • وان كنتن تردن الله ورســـوله والدار الآخرة فان الله أعد للمحســـنات منكن أجرا عظيما »[1] •

فبدأ الرسول صلى الله عليه وسلم بعائشة الصـــغيرة خير داعية لله وللرسول ، فاختارت الله ورسوله والدار الآخرة ، وتبعتها بقية الزوجات لم تتخلف منهن واحدة •

كان القـــرآن دائم النصح والتذكير لهن وللمهمة التى وجدن الرسول صلى الله عليـــه وسلم من أجلها ، وكثيرا ما كان يهددهن حتى يتخلصن من آثار الحياة وشواغلها •

« يا نســـاء النبى لستن كأحد من النســـاء ، ان اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذى فى قلبه مرض »[2] •

« عسى ربـــه ان طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا منـــكن مســـلمات مؤمنـــات قانتات تائبات عابدات ســـائحات ثيبات وأبكارا »[3] •

---

(١) الأحزاب : ٢٨ ، ٢٩ •
(٢) الأحزاب : ٣٢ •.
(٣) التحـــريم : ٥ •

« وقرن فى بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهليـــة الأولى ، وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورســوله ، انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا • واذكرن ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة ، ان الله كان لطيفا خبيرا» [1] **•**

« يا نساء النبى من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين ، وكان ذلك على الله يسيرا »[2] **•**

« ومن يقنت منكن لله ورسوله وتعمل صالحا نؤتها أجرها مرتين وأعتدنا لها رزقا كريما »[3] **•**

واذا كانت المقـــادير قد حرصت على العنـــاية بأمهات المؤمنين ــ رضى الله عنهن ــ كى ينشرن الدعوة ، فان عناية النبى صلى الله عليه وسلم كانت جنبا الى جنب تسير فى نفس الطريق التشريعى للأمة •

طلق عمرة الكلابية ولم يدخل بهـــا حينما تقدم اليهـــا فاستعاذت بالله منه لأنها من الجهل والغباء بحيث لا تصلح أن تكون فى صفوف الداعيات من زوجاته صلى الله عليـــه وسلم •

وطلق حفصة بنت عمر ــ رضى الله عنهما ــ تطليقة لأمر

---

(١) الأحزاب : ٣٣ ، ٣٤ • (٢) الأحزاب : ٣٠ •
(٣) الأحزاب : ٣١ •

يهم الدين ، فلقد أفشت سرا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يبال بأنها ابنة عمر لأن أمر الدين أوجب أن يلتزم •

ولم يغضب عمر رضى الله عنه ، بل التفت الى ابنته قائلا : « ما يعبأ الله بعمر وابنته بعدها » •

وردها الرسول صلى الله عليه وسلم بعد أن تابت وأنابت عما صدر منها ، وهددها عمر رضى الله عنه بقوله : « ان طلقك رسول الله مرة ثانية لا أكلمك أبدا! » •

نستطيع بعد هذا العرض أن نقول ان التعدد كان لمصلحة الدعوة وحدها • وحينما انتشرت الدعوة وأدت كل واحدة من الزوجات دورها كاملا ، نهى النبى صلى الله عليه وسلم عن الزواج ، فلقد قاربت الرسالة على التمام وسارت الدعوة نحو الكمال :

« لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج »[1] •

* * *

بهذا التفانى فى خدمة الرسالة ، ووقوف الزوجات المخلصات الى جانب الرسول صلى الله عليه وسلم غير مدخرات وسعا فى مؤازرته ومساندته رفع الله درجاتهن ، وكن شريكات فى حياة فاضلة غالية ، واستحققن قوله تعالى :

---

(١) الأحزاب : ٥٢

« النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، وأزواجه أمهاتهم »[1]

فنلن وسام الشرف والاستحقاق وصرن أمهات المؤمنين . وبهذا أنزلهن الاسلام المنزلة السامية ، وجعلت درجاتهن فى أعلى عليين ، فكان أبو بكر رضى الله عنه مع مكانته وفضله الذى شهد به رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله : « ما طلعت الشمس بعد النبيين بأفضل من أبى بكر » ينادى ابنته عائشة ـ رضى الله عنها ـ « يا أمة » ، وكذلك فعل جميع الصحابة .

واثبات التشريف بالأمومة لا يجيز الخلوة بهن ولا مقابلتهن من غير حجاب ، ولا يجوز لأحد أن يلتقى بهن ولو مع محرم .

« لا جناح عليهن فى آبائهن ولا أبنائهن ولا اخوانهن ولا أبناء اخوانهن ولا أبناء أخواتهن ولا نسائهن ولا ما ملكت أيمانهن ، واتقين الله ، ان الله كان على كل شىء شهيدا »[2] .

وسؤالهن فى شئون الدين والدنيا انما يكون من وراء حجاب .

« واذا سألتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب ، ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن »[3] .

فبالحجاب قطع الطريق على الفضوليين والثقلاء والذين

---

(١) الأحزاب : ٦ .
(٢) الأحزاب : ٥٥ .
(٣) الأحزاب ٥٣ .

تطول ألسنتهم فيتحدثون عن أمهات المؤمنين ــ رضى الله عنهن ــ بما يسوءهن كما هي عادة الذين يترددون على بيوت الزعماء والقادة .

« أن تبدوا شيئا أو تخفوه فان الله كان بكل شيء عليما »[1] .

وثبت تحريم الزواج بهن بعد أن لحق الرسول الأعظم بالرفيق الأعلى **« وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا ، ان ذلكم كان عند الله عظيما »**[2] .

وليس لأحد أن يتمنى الزواج بهن ، روى ابن عباس « أن رجلا أتى بعض أزواج النبى صلى الله عليه وسلم فكلمها ــ وهو ابن عمها ــ فقال النبى صلى الله عليه وسلم له : «لا تقومن هذا المقام من بعد يومك هذا » . فقال : « يا رسول الله انها ابنة عمى ، والله ما قلت منكرا ولا قالت لى . قال النبى صلى الله عليه وسلم « قد عرفت ذلك . انه ليس أحد أغير من الله ، وأنه ليس أحد أغير منى » .

فمضى الرجل ثم قال : يمنعنى من كلام ابنة عمى لأتزوجنها من بعده . فلما نزلت آية الاستئذان والمنع فى الأحزاب ، أعتق ذلك الرجل رقبة وحمل على عشرة أبعرة فى سبيل الله وحجج ماشيا .

***

---

(١) الأحزاب : ٥٤ .   (٢) الأحزاب ٥٣ .

وبحرمة الزواج من أمهاتنا ، رضى الله عنهن ، صان الله كرامتهن وحفظ لهن درجاتهن التى نلنها بالزواج من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلو أبيح لزوجة الرسول أن تتزوج بعده ، لصارت فى عصمة آخر وتحت كفالته ونسبت اليه ، وبهذا تذهب كرامتها وتسقط من أرفع درجة الى درجة أقل فتخسر ما كان لها من التبجيل والتعظيم ولو كان زوجها أفضل رجل فى الأمة .

ولذلك اقتضت حكمة الله أن تبقى على ثقة الأمة بهن ، لتأخذ عنهن العلوم الشرعية التى تعلمنها من الرســـول صلى الله عليه وســـلم . فلو تزوجت واحدة منهن بغيره لارتابت بها الأمة ، فتضيع الثقة وتضيع العلوم الشرعية التى لا تعلم الا من أمهات المؤمنين فتفقد الخير الكثير ، وأيضا اتقاء الفتنة التى تقوم بين الأمة بسببهن ، فلو أبيح نكاحهن بعد الرسول صلى الله عليه وســـلم لرغب فيهن فضـــلاء الأمة وعظماؤها للتبرك والتيمن والحظوة بعلومهن التى تسبب المنزلة والرفعة فيقع التنازع والتخاصم بسببهن ، وكذلك منع غير المستحقين للخلافة من التطاول اليهـــا ، لأن من تزوج احداهن يزعم أن له شرفا بزواجه منهـــا ، فيجد فى استمالة النفوس وخداع العقول ، ويوهم الناس أنه أحق بأن يخلف الرسول صلى الله عليه وسلم فى أمته كما خلفه على زوجته .

* * *

ولقد أمرهن القرآن الكريم بأن يحتجبن اذا اضطررن للخروج ليلا للحاجة ، فقد كان هناك بالمدينة جماعة من الفساق يتعرضن للاماء اللاتى يخرجن ليلا لحاجتهن ، فكانوا يتعرضون من غير قصـــد الزوجات ظانين أنهن اماء ، وكان ذلك يؤذيهن فشكون ، فخوطب هؤلاء الفساق فى هـــذا الأمر فاعتذروا بأنهم انما يفعلون ذلك بالاماء • وكان أن خرجت سودة بنت زمعة ــ رضى الله عنها ــ زوج النبى ــ صلى الله عليـــه وسلم ــ بعدَ خديجة ــ رضى الله عنها ــ لحاجتها ، فرآها عمر رضى الله عنه وعرفها فقال : ياســـودة أما والله ما تخفين علينا فانظرى كيف تخرجين ، فانكفأت راجعة ورســـول الله صلى الله عليـــه وســـلم فى بيت عائشة رضى الله عنها ، وانه ليتعشى وفى يده عرق ــ فدخلت وقالت : يا رسول الله انى خرجت لبعض حاجتى فقال لى عمر كذا وكذا ، فأوحى الله اليه :

« يا أيها النبى قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ، ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين ، وكان الله غفورا رحيما »[1] •

* * *

وبعد وفاته صلى الله عليه وسلم كان الصحابة يرجعون الى أمهـــات المؤمنين فى كثير من أحكام الشريعة ، فمن كان له

---

(١)الأحزاب : ٥٩ .

قرابة منهن كان يسـألها دون غيرها ، وكثيرا ما يكون الرواة عنهن من المحارم •

فالسـيدة عائشة ـ رضى الله عنها ـ روى عنها كثيرون منهم : أختها أم كلثوم ، وأخوها من الرضاعة عوف بن الحارث ، وابنا أخيها القاسم وعبد الله ابنا محمد بن أبى بكر ، وحفصة وأسماء بنتا أخيها عبد الرحمن ، وعبد الله وعروة ابنا عبد الله ابن الزبير من أختها أسماء ، وروى عنها غيرهم من أقاربها ومن الصحابة والتابعين كثيرون •

أما حفصة ـ رضى الله عنها ـ فروى عنها أخوها عبد الله ابن عمر وابنـه حمزة وزوجتـه صـفية بنت عبيد وأم بشر الأنصارية • وأما ميمونة رضى الله عنها فروى عنها أبناء أخواتها ، ولاسيما أعلمهم وأشرفهم عبد الله بن عباس رضى الله عنهم أجمعين •

أما رملة بنت أبى سفيان رضى الله عنها فروى عنها ابنتها حبيبة وأخوها معاوية وعتبة وابنا أخيها وأختها • وحتى صفية رضى الله عنها كان لها ابن مسلم روى عنها فيمن روى •

ولقد كانت زوجاته اللائى توفى عنهن عليه الصلاة والسلام معلمات ، ومفتيات لنسـاء أمته ورجالها فكن خير من قام بمهمة توصيل الأحكام الى عامة المسلمين •

* * *

مكانة الأمهات بعد الرسول صلى الله عليه وسلم

بعد أن لحق الرسول صلى الله عليه وسلم بالرفيق الأعلى توارث الصحابة والخلفاء الاحترام والتقدير لهن عنه صلى الله عليـه وسلم وعن المنزلة السامية التى توجهن الاسلام بها ، وتسـابق الجميـع فى رعايتهن واجلالهن ، فبجانب أن بيوتهن كانت مراكز للدعوة ينهل منها كل من يريد أن يتزود من العلم والمعرفة والاطلاع على ما كان يفعله الرسول الأعظم ، انقطعن للعبادة والتصدق مؤثرات الزهد والورع •

وأول ما صادفنه بعد الوفاة البحث عما ورثنه من الرسول صلى الله عليه وسلم ، فأردن أن يرسلن عثمان بن عفان الى أبى بكر يسألنه مواريثهن من سهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بخيبر وفدك ، فذكرتهن عائشة قائلة : أما تتقين الله ! أما سمعتن رسول الله صلى الله عليـه وسلم يقول : « نحن معاشر الأنبياء لا نورث ، ما تركنا صدقة » ؟ • فأمسكن •

كان أبو بكر رضى الله عنه يسوى بين الناس فى العطاء فكن يأخذن نصيبهن وينلن منـه ما يقوم به الأود ويتصدقن بالفائض ، فلما تولى عمر رضى الله عنه الخلافة كان يرى التفاضل

بين المسلمين فجمع الصحابة وقال : انى قد رأيت أن أفرض العطاء لأهله الذين افتتحوه فقالوا : نعم الرأى ما رأيت يا أمير المؤمنين قال : « فبمن أبــدأ ؟ » قالوا : « بنفســك » قال : « لا ولكنى أضع نفسى حيث وضعها الله وأبدأ بآل رسول الله صلى الله عليه وسلم » فكتب عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها فى اثنى عشر ألفا وكتب ســائر أزواج النبى فى عشرة آلاف •

وروى الطبرى أن عمر ــ رضى الله عنه ــ كان يجعل لنفسه ولكل نفس منفوسة من أهل الفىء فى رمضان درهما فى كل يوم وفرض لأزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم درهمين •

وأثنت عائشة على عمر رضى الله عنهما ، فكان مما قالت : « كان عمر بن الخطاب يرسل الينا بأحظائنا ــ بحصصنا ــ حتى من الرؤوس والأكرعة » •

وظل يحرص على كفايتهن مئونة العيش تاركا لهن حرية الاختيار حتى يكن فى رضا كامل ، كما حصل عندما قسم خيبر فقد خير أزواج الرسول صلى الله عليــه وسلم أن يقطــع لهن من الأرض أو يضمن لهن مائة وسق كل عام • فمنهن من اختارت الأوسق ، ومنهن من اختارت الاقطاع •

وبعث بالعطاء الى أم المؤمنين زينب بنت جحش ، رضى الله عنها فلما أدخل عليهــا قالت : « غفر الله لعمر ، غيرى من أخواتى أقوى على قسم هذا منى » قالوا : « هذا كله لك » •

فقالت : « ســـبحان الله » ، واستترت دونه بثوب وقالت : « صبوه واطرحوا عليه ثوبا » ، ففعلوا ، فقالت لبرزة بنت رافع : « أدخلى يدك فاقبضى منه قبضة فاذهبى الى آل فلان وآل فلان » من أيتامها وذوى رحمها ، فقسمته حتى بقيت منه بقية ، فقالت لها برزة « غفر الله لك ، والله لقد كان لنا فى هذا حق » قالت : « فلكم ما تحت الثـــوب » فكشفت الثـــوب فوجدت خمســـة وثمانين درهما ، ثم رفعت زينب رضى الله عنها يدها وقالت : « اللهم لا يدركنى عطاء عمر بعد عامى هذا » • وقد استجاب الله لها • فكانت أول أزواج النبى صلى الله عليه وسلم لحوقا به •

* * *

كان عمر رضى الله عنـــه أحرص الناس على ألا يمس الأمهات أدنى مضايقة ، فقد طلبن منه الحج ، فأبى عليهن خوفا ما قـــد يلحقهن فى الطريق • ولـــا ألححن أذن لهن وأرســـل معهن عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف رضى الله عنهما ، وأمرهما أن يسير أحدهما بين أيديهن والآخر من خلفهن ولا يسايرهن أحد ، وقال : « فاذا نزلن فأنزلاهن شعبا ثم كونا على باب الشعب لا يدخل عليهن أحد » ثم أمرهما اذا طفن بالبيت ألا يطوف معهن أحد الا النساء ، فلما هلك عمر غلبن من بعده •

وكذلك فعل عثمان رضى الله عنه وكان يضع مكانه سعيد بن زيد • على أن منهن من لم تحج فقد ذكروا أن النبى صلى الله

عليه وسلم قال فى حجة الوداع : « هذه ثم ظهور الحصر » يعنى لا حج بعد هذه الحجة ، فأخذت بذلك زينب بنت جحش وسودة بنت زمعة رضى الله عنهما فكانتا تقولان : لا تحركنا دابة بعد أن سمعنا ذلك من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

* * *

ولما اشتد الخلاف بين عثمان رضى الله عنه وبعض الرعية ، كانت بيوتهن ملجأ الطرفين على السواء ، وكانت نصائحهن يستمعها الكبير والصغير .

وقد دار حوار بين أم سلمة رضى الله عنها والخليفة عثمان ابن عفان ، قالت أم سلمة رضى الله عنها تعظ عثمان : « يا بنى مالى أرى رعيتك عنك نافرين ومن جنبك مزورين (١) ، لا تعف(٢) طريقا كان النبى لحبها(٣) ولا تقتدح زندا كان أكباها . توخ حيث توخى صاحباك فانهما ثكما(٤) الأمر ثكما لم يظلما أحداً فتيلا ولا نفيرا ، ولا يختلف الا فى ظنين(٥) . هذه حق بنوتى قضيتها اليك ولى عليك حق الطاعة » .

فقال عثمان رضى الله عنه : « أما بعد .. فقد قلت ووعيت ووصيت فاستوصيت ، ولى عليك حق النصتة . ان هؤلاء القوم

---

(١) مبتعدين . (٢) لا تمح .
(٣) أوضحها .
(٤) ثكما الأمر لزماه ولم يحيدا عن الحق .
(٥) التهم .

الغثرة[1] تطأطأت[2] لهم تطأطؤ الدلاة : أرانيهم الحق اخوانا ، وأراهم الباطل اياى شيطانا ، أجررت المرسون[3] منهم رسنه ، وأبلغت الراتع مسقاته ، فتفرقوا علي فرقا ، صامت صمته أنفذ من قول غيره ، ومزين له فى ذلك ، فأنا منهم بين ألسنة ألداء وقلوب شداد وسيوف حداد ، ألا ينهى حليم سفيها ، ألا يعظ عالم جاهلا ، قد يرى الله منهم يوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون » •

* * *

هــذا وان كنا نرى التعمل فى اللفظ ، فلا نشك أن مثل هــذه الأمور نوقشت فى بيوت أمهات المؤمنين رضى الله عنهن •

ولمـــا اشتد الخلاف وجدنا أم المؤمنين صفية بنت حيى رضى الله عنها تحمل الطعام الى عثمان من السـطح ، ولا تدخل من قريب أو بعيد فى الأزمة ، وانما يحملها الى ذلك ما تعرفه عن عثمان من فضل ومكانة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم •

ولما انتهى الخلاف بقتل عثمان رضى الله عنه ، وكان ما كان من خلاف بين معاوية وعلى رضى الله عنهما ــ رأينا أم سلمة رضى اللهعنها ترسل ابنها عمر ليحارب فى صفوف على قائلة : لو كان عندى ثانيا لأرسلته •

---

(١) السفلة والرعاع . (٢) انحنيت .
(٣) الذى عليه الرسن . قالوا : وأجوره رسنه : تركه يرعى كيف يشــاء .

بينما نرى عبد الله بن الزبير يقنع خالته أم المؤمنين عائشة ــ رضى الله عنها ــ فتنقطع الأميال لتكون ضد ابن أبى طالب مع طلحة والزبير . فلما انتهت المعركة بانتصار على كرم الله وجهه وقتل الجمل الذى كان يحمل عائشة رضى الله عنها نقل هودجها الى جمل آخر سار به حفيدا الرسول الأعظم الحسن والحسين ابنا على بن أبى طالب ، ــ رضى الله عنهما ــ فظلا بها الى أن وصلت الى بيتها بالمدينة .

ومع أن البعض يعد هذه هفوة منها ، الا أن ذلك لم ينقص من مكانتها ومنزلتها حبا لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

وظل من بقى منهن فى مكان الصدارة وفاء وحبا للرسول صلى الله عليه وسلم ، وتقديرا لما أعطاهن الاسلام من مكانة ، رضى الله عنهن أجمعين ، الى أن لقين الرفيق الأعلى .

* * *

رد على شبه المغرضين

ان الانشغال بالشهوات الدنيوية ، ومنها الانغماس فى ملذات الجسد والبحث عن التمتع بالنساء لا يظهر فى حياة المرء فجأة بل لا بد له من تركيب خاص فى الجسم غالبا ما يظهر فى السن المبكر وتظهر دلائله واضحة فى تباشير الصبا وفى أيام الشباب وفى اكتمال الرجولة • ومن المستبعد أن تظهر الرغبة الجامحة فى زمن الكهولة بلا مقدمات ، ومحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان عافا فى صباه وشبابه ، فلم يؤثر عنه أنه ضل وأنه غوى فحاد عن الطريق المستقيم ، لقد كان فى الجاهلية وقبل الرسالة يلقب بالأمين ، وكان مثلا أعلى للشباب ، ويحفظ له التاريخ تلك المرة التى أراد أن يذهب فيها ليستمع الى السامر فى عرس عند أهل الحى فما كاد يقترب من منتدى القوم حتى وقع بينهم ما أفسد به الليلة ونام محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ بجوار حائط فلم يوقظه الا حرارة الشمس •

فلما تزوج خديجة رضى الله عنها شغل بما هو أكبر من الحياة فكان يستعد للقاء عالم ليس للناس به سابق علم ، ولا يستطيع

المرء أن يتصل به الا اذا تربى تربية خاصـــة ومرنت النفس على الاقتراب من ذلك العالم ومن ســـماع الوحى ، فقد كون تكوينا آخر تدخلت فيه قدرة خالق البشر وهو الأعلم به .

« ألم يجدك يتيما فآوى • ووجدك ضالا فهدى • ووجدك عائلا فأغنى »[1] .

« ما ضل صاحبكم وما غوى • وما ينطق عن الهوى • ان هو الا وحى يوحى • علمه شـــديد القوى • ذو مرة فاستوى • وهو بالأفق الأعلى • ثم دنا فتدلى • فكان قاب قوسين أو أدنى • فأوحى الى عبده ما أوحى • ما كذب الفؤاد ما رأى »[2] .

فالذين يفترون على صفوة الخلق محمد بن عبد الله الكذب فيزعمون أن زواجه بهـــذا العدد من النســـاء كان اشـــتغالا بالشهوة الجسدية ، انما يفترون زورا وبهتانا وكذبا .

فلم يكن الرسول صلى الله عليه وسلم ، يدخل بكل امرأة تعرض عليـــه مهما يكن جمالها وحسنها ، بل كان اختيـــاره لزوجاته يتفق مع قيامه بالمهمة العظمى الملقاة على عاتقه .

وقصة بنت أم قرفة دليل على ذلك . ففى صحيح مسلم أن رسول الله صلى الله عليـــه وسلم بعث أبا بكر الى فزارة ، وفيهم سلمة بن الأكوع الذى يروى الحديث فيقول :

---

(١) الضحى : ٦ ــ ٨ .   (٢) النجم : ٢ ــ ١١ .

« وخرجت مع أبى بكر حتى اذا صلينا الصـــبح أمرنا فشنينا الغارة فوردنا المـــاء فقتل أبو بكر من قتل ، ورأيت طائفة فخشيت أن يسبقونى الى الجبل فأدركتهم ورميت بسهم بينهم وبين الجبل ، فلما رأوا السهم وقفوا وفيهم امرأة هى أم قرفة عليهـــا قشع من أدم ومعها ابنتها من أحسن العرب ، فجئت بهم أسوقهم الى أبى بكر ، فتلقى أبو بكر ابنتها فلم اكشف لها ثوبا » .

وروى أن النبى صـــلى الله عليه وسلم لمـــا عاد ســـلمة ابن الأكوع طلب منه أن يهب له تلك الفتـــاة الجميلة جارية بنت مالك بن حذيفة بن بدر قائلا : يا سلمة : هب لى المرأة لله أبوك . فقلت : هى لك يا رسول الله ، فلم يأخذها لنفسه لكنه بعث بها الى مكة ففدى بها أسرى المسلمين هناك .

وهـــذا التصرف من النبى الأعظم أكبر دليل على دحض مزاعم أعداء الله ، فلو كان أخذها بدافع الرغبة والميل الى اقتناء النســـاء لاحتفظ لنفسه بهذه الفتاة الفزارية التى هى باجماع المؤرخين من أجمل بنات العرب ، لكنه بعث بها الى مكة ليفتدى بها أسرى من الصحابة .

وكذلك قصة أم شريك التى أرادت أن تهب نفسها للنبى فامتنع لكن لمـــا أوذيت فى ســـبيل الدعوة وتعرضت للعذاب الأليم ، قبل الرسول صلى الله عليه وسلم هبتها مكافأة لها على ما قدمت فى ســـبيل الدعوة .

لقد كان من الواجب على من يريد أن يلصق التهمة أن يتحرى لهـا وأن يدرس دوافعها ومؤثراتها وأن يتوخى الأناة والفهم ثم يحكم بما يمليه عليـه الضمير والعقل والمنطق ، لا أن يقيس ما يجرى الآن ، وما عليـه القوم بحياة الرسـول الأعظم صلى الله عليه وسلم .

ولقد حاد عن الحق قلة من المستشرقين المغرضين وجماعة من الملحدين الذين اتخذوا القدح فى الاسـلام صناعة يعيشون منها ، فزعموا أن محمدا صلى الله عليـه وسلم تزوج نسـاء كثيرات لأنه كان يحب النسـاء ، وتقولوا على الرسـول بما لا يصح أن يقال ، ومن ذلك قولهم فى زواجه من زينب بنت جحش رضى الله عنها : ان محمدا صلى الله عليـه وسلم كان مغرما بها ، وأنه كان مفتونا بجمالها لذلك عمل على تطليقها من زوجها ليتزوجها ـ وقد أجبنا على كثير من الشبهات فى أثنـاء الكلام على الحكمة من التعدد .

ونقول : اذا شـغل الانسـان بمشكلة أو أوكل اليه أمر انسـان فأخلص له وأقام بمصلحة لجمـاعة محدودة ، فانه يعيش فيما أخلص له ويستولى ذلك على تفكيره وملاذه وشهواته فيصرفه الى ما أهم به نفسـه ، وقد لا يجد من القوت ما يرفه به عن نفسـه .. هـذا بالنسبة للانسـان العادى ، فما بالك بصاحب رسـالة عظمى كالنبى محمد صلى الله عليـه وسلم !

« واذا كان هنـــاك من يجيز لمثل هؤلاء حيـــاة مملوءة بالترف والنعيم والنســـاء ، فانه يقوم على التوسع فى المطعم والمشرب والملبس والمســـكن وعلى كل ما يســـاعد على اثاره الشهوات ويتفنن فى التمتع بما يطيب ويلذ •• ربما هـــذا ما سار عليه كثيرون من الأدعياء فى القديم والحديث ، فالموائد مملوءة وحافلة باللحوم والفواكه والأشربة المتنوعة ليرتووا بما يشـــاء لهم الشيطان ، ثم ينقلبوا الى من يشاءون ليفرغوا ما اختزنوا مستسلمين لأهوائهم وأغراضهم ، أما صاحب الرسالة السماوية فقد كان بعيدا عن كل ما يوصل الى ذلك ، فالنصوص الصحيحة التى وردت تدل على أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يشبع بالطعام ، ولم يعر الأكل طول حياته التفاتا ، ولم يجمع على مائدته صنفين من الطعام ، وانما عاش لمهمة أكبر وأعظم من شـــهوات الدنيا وطعامها ونسائها فقد عاش للحياة الباقية فى الآخرة » •

« ما لى وللدنيا ؟ •• انما أنا كرجل قال تحت ظل شجرة ثم راح وتركها »(١) •

وروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : « دخلت على رسول الله صلى الله عليـــه وسلم وهو على حصير قال : فجلست فاذا عليه ازاره وليس عليـــه غيره ، واذا الحصير قد

---

(١) سنن الترمذى ج ٣ ص ٢٧٨ •

أثر فى جنبه واذا أنا بقبضة من شـــعير نحو الصاع ، وقرظ فى ناحيـــة فى الغرفة واذا اهاب معلق ، فابتدرت عيناى فقال : ما يبكيك يا ابن الخطاب ؟ فقلت : يا نبى الله وما لى لا أبكى وهذا الحصير قد أثر فى جنبك ، وفى خزانتك لا أرى فيها الا ما أرى ، وذلك كسرى وقيصر فى الثمار والأنهار وأنت نبى الله وصـــفوته وهـــذه خزانتك ، قال : يا ابن الخطاب أما ترضى أن تكون لنا الآخرة ولهم الدنيا » ! •

وروت عائشة رضى الله عنها قالت : « دخلت امرأة من الأنصار فرأت فراش رسول الله صلى الله عليـــه وسلم قطيفة مثنية ، فبعثت الى بفراش حشوة بصوف ، فدخل على رسول الله صلى الله عليـــه وسلم فقال : ما هـــذا يا عائشـــة ؟ قالت قلت : يا رسول الله فلانه من الأنصار دخلت فرأت فراشك فذهبت فبعثت الى بهذا فقال : رديه يا عائشة فوالله لو شئت لأجرى الله معى جبال الذهب والفضة » !

وكانت كل حياته زهدا فى الدنيا وطلبا للآخرة • أليس محمد بن عبد الله ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ الذى يقوم الليل راكعا ساجدا حتى تورمت قدماه ، فلما سئل كيف يفعل ذلك وقد غفر الله له ما تقدم وما تأخر ، قال صلى الله عليه وسلم : « أفلا أكون عبدا شـــكورا » •

والرسول صلى الله عليه وسلم هو القائل : « موضع سوط

فى الجنة خير من الدنيا وما فيها ، ولغدوة فى سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها » •

ولقد عاش الرسول الأعظم فى بيوته كلها عيشة غليظة ، ورضيت زوجاته بذلك بعد أن خيرهن بين الله ورسوله والدنيا : فاخترن مجتمعات الله ورسوله ، ورفضن الدنيا وما فيها من متاع •

روى أنس قال : « ما أعلم النبى رأى رغيفا مرققا حتى لحق بالله ، ولا رأى شاة سميطا بعينه قط » •

وقالت عائشة رضى الله عنها : « انا كنا ننظر الى الهلال : ثلاثة أهلة فى شهرين ، وما أوقدت فى أبيات رسول الله نار » •

فقال لها عروة بن الزبير : ما كان يعيشكم ؟

قالت : « الأسودان : التمر والماء » (١) •

وعن أنس بن مالك « أن فاطمة رضى الله عنها جاءت بكسرة خبز الى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : ما هـــذه الكسرة يا فاطمة ؟ قالت : قرص خبزته فلم تطب نفسى حتى أتيتك بهذه الكسرة ، فقال : أما انه أول طعام دخل فم أبيك منذ ثلاثة أيام » • أخرجه الامام أحمد والطبرانى ورجالهما ثقات •

وعن ابن عباس قال : « كان رسول الله صلى الله عليـــه وسلم يبيت الليالى المتتابعة طاويا وأهله لا يجدون عشـــاء ،

---

(١) الحديث أخرجه مسلم فى صحيحه وفى البخارى أيضـــا رواه أحمد فى مسنده •

وكان أكثر خبزهم خبز الشعير » • أخرجه الترمذى بسند صحيح •

وروى أيضا عن ابن عباس قال : « قبض النبى صلى الله عليه وسلم وان درعه لمرهونة عند رجل من يهود على ثلاثين صاعا أخذها رزقا لعياله » • أخرجه الترمذى والبخارى ومسلم •

أما الفراش الوثير الذى له أكبر الأثر فى اثارة الغرائز والميل الى التمتع بالحياة ، فلم يكن له فى بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم أثر •

فقد كان فراشه صلى الله عليه وسلم من أدم(1) حشوه ليف يثوى فيه قليلا ، فما أن يستدفىء حتى يسمع الصارخ(2) فينهض متأهبا لصلاة الفجر •

وما روته أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها عن طعامها ومسكنها ليلة دخل بها الرسول صلى الله عليه وسلم فيه الكفاية — وقد سبق فى ترجمتها •

ولقد أدبه ربه فأحسن تأديبه ، وقد أمره بألا ينظر الى ما يتمتع به أصحابه من متاع الدنيا التى أحلها الله لعامة المسلمين ، وأن يغض الطرف عن جمال الحياة فانما هى فتنة وبلاء واختبار ، وأن يتمسك بما عند الله فما عند الله خير وأبقى •

---

(1) جلد .　　(2) الديك .

« ولا تمدن عينيك الى ما متعنا بـه أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ، ورزق ربك خير وأبقى »[1]

ويطلب الله من نبيه أن يوصى أهله بالصلاة والمحافظة عليها ، وأن يسأل الله مما عنده من الرزق ، فليس هناك دابة الا ويتولى أمرها والعناية بها ، وأن الجزاء الأوفى للمتقين .

« وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها ، لا نسألك رزقا ، نحن نرزقك ، والعاقبة للتقوى »[2] .

ولقد فهم ما كان عليه الرسول الكريم الفيلسوف الانجليزى توماس كارليل فشهد لمحمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم شهادة حق حين قال :

« وما كان محمد أخا شهوات برغم ما اتهم به ظلما وعدوانا ، وشد ما نجور ونخطىء اذا حسبناه رجلا شهويا لا هم له الا قضاء مآربه من الملاذ .

« كلا ، فما أبعد ما كان بينه وبين الملاذ أين كانت . لقد كان زاهدا متقشفا فى مسكنه ومشربه وملبسه وسائر أموره وأحواله ، وكان طعامه عادة الخبز والماء ، وربما تتابعت الشهور ولم يوقد بداره نار .

---

(١) طـه : ١٣١ .

(٢) طـه : ١٣٢ .

وانهم يذكرون ـ ونعم ما يذكرون ـ أنه كان يصلح ثوبه ويرفوه بيده ، فهل بعد ذلك فكرة ومعجزة » .

وروى أن دعاءه صلى الله عليه وسلم كان دائما :

« اللهم انى أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى » أى الاستغناء .

ولقد كان محمد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ مؤدبا مع نسائه ، وقد أمر المسلمين بأن يكونوا مؤدبين مع نسائهم . ولعن الرسول الأعظم المسلم الذى يفاخر بذكر ما يكون بينه وبين زوجته فى خلوته ، وبذلك ضرب لنا مثلا أعلى يحتذى به فى التخلق بالآداب السامية وما كان لزوجة من زوجاته أن تتحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بما خفى واستتر ، وما علينا الا أن نمسك بالقلم حبا واحتراما وتقديرا لمعلم الانسانية وصاحب الخلق الكريم : **« وانك لعلى خلق عظيم »**[1] .

ونستطيع بعد هذا كله أن نقول : ان التعدد بالنسبة للرسول صلى الله عليه وسلم كان لحكمة سامية ذكرنا ما علمنا منها وما لم نعلمه أكثر وأكثر . فلا يصح أن نقيس عليه حياتنا وزواجنا ، فندعى أن من حقنا تقليد النبى فى هذا

(١) القلم : ٤ .

الأمر •• كلا ، فلا وجه شـــبه بين ما أبيح للرسول صلى الله عليـــه وسلم وما أبيح لنا •

اللهم آتيه الوسـيلة والفضـيلة والدرجـة الرفيعة ، وابعثه المقام المحمود •

انك نعم المولى ونعم النصـير

* * *

محتويات الكتاب

الموضوع	الصفحة

رقم الايداع ١٦٣٣ / ٨٣
الترقيم الدولى ٩ـ٠٠٦ـ٣٠٧ـ٩٧٧

دار التوفيق النموذجية
للطباعة والجمع الآلى
الأزهر : ٣ حارة الموصلى
بجوار جامع الرعاد